

تَفْسِيرُ الْمَرْأِغِيِّ

تَأَلِيفُ

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي
أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دارالعلوم سابقا

الجزء الرابع عشر

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

الجزء الرابع عشر

سورة الحجر

هى مكية وآيها تسع وتسعون .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

- (١) إنها افتتحت بمثل ما افتتحت به سابقتهما من وصف الكتاب المبين .
- (٢) إنها شرحت أحوال الكفار يوم القيامة وتمنيهم أن لو كانوا مسلمين كما كانت السالفة كذلك .
- (٣) إن فى كل منهما وصف السموات والأرض .
- (٤) إن فى كل منهما قصصا مفصلا عن إبراهيم عليه السلام .
- (٥) إن فى كل منهما تنبيه لرسوله صلى الله عليه وسلم بذكر ما لاقاه الرسل السالفون من أمهم وكانت العاقبة للمتقين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١) رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِجُهُمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ

يَعْمَلُونَ (٣) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (٤)
مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥) .

شرح المفردات

ربما (بضم الراء وتخفيف الباء وتشديدها) كلمة تدل على أن ما بعدها قليل الحصول ، فإذا قيل ربما زارنا فلان دل على أن حصول الزيارة منه قليل ، يليهم : أى يشغلهم من قولهم : هُيئتُ عن الشيء ألهى لهيا إذا أعرضت عنه ، ما تسبق : أى ما يتقدم زمان أجلها .

الإيضاح

(الر) تقدم منا القول فى بيان معانى هذه الحروف ومبانيها ، فذكرنا أنها حروف تنبيه بمنزلة ألا ، ويا ، وينطق بأسمائها ساكنة فيقال : (ألف . لام . را) .
(تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) أى تلك السورة من آيات ذلك الكتاب الكامل من بين سائر الكتب المنزلة من عند الله ، المبين للرشد من الغى ، والمظهر فى تضاعيفه للحكم والأحكام .

(ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) هذا إخبار من الله عن الكفار بأنهم سيندمون فى الآخرة على ما كانوا عليه من الكفر ، ويتمنون أن لو كانوا فى الدنيا مسلمين . وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا اجتمع أهل النار فى النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين : ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا بلى ، قالوا فما أغنى عنكم الإسلام وقد صرتم معنا فى النار ؟ قالوا كانت لنا ذنوب فأخذنا بها ، فسمع الله ماقلوا ، فأمر بمن كان فى النار من أهل القبلة فأخرجوا ، فلما رأى ذلك من بقى من الكفار قالوا يا ليتنا كننا مسلمين

فَنُخْرِجْ كَمَا خَرَجُوا ، قَالَ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ - الرَّتْلِكَ آيَاتِ الْكِتَابِ وَقِرَآنِ مَبِينٍ ، رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ .
وَنَحْوُ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ قَتَلُوا يَأْتِمُنَّا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » . قَالَ الزَّجَاجُ : إِنْ الْكَافِرُ كَلَّمَ رَأَى حَالًا مِنْ أَحْوَالِ الْعَذَابِ وَرَأَى حَالًا مِنْ أَحْوَالِ الْمُسْلِمِ وَدَّ أَنْ لَوْ كَانَ مُسْلِمًا .

وقصارى ذلك - قد يتمنى الذين كفروا لو كانوا مسلمين حينما يعاينون العذاب وقت الموت : « وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ آخِرُ جُؤَا أَنفُسِكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ » وفي الموقف حينما يرون هول العذاب وقد انصرف للمسلمون إلى الجنة وسيقواهم إلى النار والمسلمون المذنبون عذبوا بذنوبهم ثم خرجوا منها وبقي الكافرون في جهنم .

وقد جاء التقليل على سنة العرب في نحو قولهم : ربما تندم على ما فعلت ، وإهلك تندم على ما فعلت ، لا يقصدون التقليل في نحو ذلك ، وإنما يريدون أن الندم لو كان مشكوكا فيه أو لو كان قليلا لحق عليك ألا تفعل هذا الفعل ، إذ العاقل يتحرز من التعرض للغم المظنون كما يتعرض للغم المتيقن ، ويتعد عن القليل منه كما يتعد عن الكثير .

(ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل) أى دعهم أيها الرسول في غفلاتهم كلون كما تأكل الأنعام ويتمتعون بلذات الدنيا وشهواتها ، وتلهيهم الآمال عن الآجال ، فيقول الرجل منهم غدا سأنال ثروة عظيمة وأحظى بما أشتهى ويعلموذا كرى ويكثر ولدى ، وأبنى القصور ، وأكثر الدور ، وأقهر الأعداء ، وأفخر الأنداد ، نحو ذلك مما يغرق فيه من بحار الأمانى والآمال وطلب الخال .

ثم علل الأمر بتركهم بقوله :

(فسوف يعلمون) سوء صنيعهم إذا هم عاينوا سوء جزائهم ووخامة عاقبتهم .

وفي هذا وعيد بعد تهديد وإلزام لهم بالحجة ومبالغة في الإنذار ، وقد

جاء في أمثالهم (أعذر من أنذر) وإيماء إلى أن التلذذ والتنعم وعدم الاستعداد
للآخرة والتأهب لها - ليس من أخلاق المؤمنين .

أخرج أحمد والطبراني والبيهقي عن عمرو بن شعيب مرفوعاً قال : « صلاح أول
هذه الأمة بالزهد واليقين ، ويهلك آخرها بالبخل والأمل » . وروى عن الحسن أنه
قال : ما أطال عبد الأمل ، إلا أساء العمل ، وروى عن علي أنه قال : إنما أخشى
عليكم اثنتين ، طول الأمل واتباع الهوى ، فإن طول الأمل ينسى الآخرة ، واتباع
الهوى يصد عن الحق .

وبعد أن هدد من كذب الرسول بقوله : ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل ،
ذكر سر تأخير عذابهم إلى يوم القيامة وعدم التعجيل به كما فعل بكثير من الأمم
السالفة فقال :

(وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم) أى وما أهلكنا قرية من القرى
بانحساف بها وبأهلها كما فعل ببعضها ، أو بإيخلائها من أهلها بعد إهلاكهم كما فعل
بأخرى ، إلا ولها أجل مقدر مكتوب فى اللوح المحفوظ لا ينسى ولا يغفل عنه ولا يتقدم
عن وقته ولا يتأخر .

وخلاصة ذلك — إننا لو شئنا لعجلنا لهم العذاب فصاروا كأمس الدابر ، ولكن
لكل أجل كتاب ، وشأننا الإمهال لا الإهمال .

وبعد أن بين سبحانه أن الأمم المهالكة كان لكل منهم وقت معين لهلاكهم
على حسب ما هو مكتوب فى اللوح - بين أن كل أمة منهم ومن غيرهم لها أجل
لا يمكن التقدم عليه ولا التأخر عنه فقال :

(ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) أى لا يجيء هلاك أمة قبل مجيء
أجلها ، ولا يتأخر الهلاك متى حل الأجل .

وفى هذا تنبيه لأهل مكة وإرشادهم إلى الإقلاع عما هم عليه من الشرك والإلحاد

الذى يستحقون به الهلاك ، وزجر لهم بأن هذا الإمهال لا ينبغي أن يغتروا به ،
فالهلاك مدخر لهم لا يتقدم ولا يتأخر .

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا
بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا
بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ
خَافِضُونَ (٩) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعْبِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِمْ
مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ
الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا
عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ
أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥) .

شرح المفردات

الذكر : هو القرآن ، و (لوما) مثل (هلا) كلمة تفيد الحث والحض على فعل
ما يقع بعدها ، منظرين : أى مؤخرين ، والشيعة : واحد شيعه وهى الجماعة المتفقة
على مبدأ واحد فى الدين والمعتقدات ، أو فى المذاهب والآراء . نسلكه : أى ندخله
يقال سلكت الخيط فى الإبرة : أى أدخلته فيها ، يعرجون : يضعدون ، سكرت :
سدت ومنعت من الإبصار ، مسحورون : أى سحرنا محمد بظهور ما أبداه من الآيات .

المعنى الجملى

بعد أن هدد سبحانه الكافرين وبالغ فى ذلك أيما مبالغة - شرع يذكر بعض
مقالاتهم فى محمد صلى الله عليه وسلم المتضمنة للكفر بما جاء به ، ثم يذكر ما هم فيه من

جحود وعناد بلغا مدى تنكر معه المشاهدات ، ويدعى معه السحر والخداع حين رؤية المبصرات .

ثم ذكر سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم تسليية له أن ما صدر منهم من السفه ليس بدعا ، فهذا دأب كل مجنون ، فكثير من الأمم السالفة فعلت مثل هذا مع أنبيائها ، فلك أسوة بهم في الصبر على سفاهتهم وجهلهم .

قال مقاتل : القائلون هذه المقالة هم عبد الله بن أمية والنضر بن الحرث ونوفل ابن خويلد والوليد بن الغيرة من صناديد قريش .

الإيضاح

(وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون) أى قالوا استهزاء وتهكما : أيها الرجل الذى زعم أنه نزل عليه القرآن : إن ما تقوله أملاء عليك الجنون ، وليس له معنى معقول ، وهو مخالف لآرائنا ، بعيد من معتقداتنا ، فكيف نقبل ما لا تقبله العقول ، ولا ترضاه الفحول من رجالنا الفخام ، وعشائرنا العظام ؟ .

(لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين) أى إن كان ما تدعيه حقا وقد أيدك الله وأرسلك ، فما منعك أن تسأله أن ينزل معك ملائكة من السماء يشهدون بصدق نبوتك .

وخلاصة ذلك : إن من يخالف آراءنا إما مجنون وإما له سلطان عظيم من ربه وحينئذ يقويه بالملائكة ليشهدوا بصدقه .

ونحو الآية قوله : « وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وَلَوْ أُنْزِلْنَا مَلَكَ الْقُضَى الْأَمْرِ » وقول فرعون فى شأن موسى : « فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّرِينَ » وقوله : « وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ، لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا » .

وقد أجاب الله عن اقتراحهم فقال :

(ما نزل الملائكة إلا بالحق) أى ما نزل الملائكة إلا بالحكمة والفائدة ، وليس في نزول الملائكة من السماء وأنتم تشاهدونهم - فائدة لكم ، لأنكم إذا رأيتموهم قلتم إنهم بشر لأنكم لا تطيقون رؤيتهم إلا وهم على الصورة البشرية إذ هم من عالم غير عالمكم ، وإذا قالوا نحن ملائكة كذبتموهم لأنهم على صورتكم فيحصل اللبس ولا تنتفعون بهم وإلى هذا أشار في سورة الأنعام بقوله : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ .

(وما كانوا إذا منظرين) أى إن في نزول الملائكة ضرراً لهم لا محالة ، لأننا نهلكهم ولا تؤخرهم ، إذ قد جرت عادتنا في الأم قبلهم أنهم إذا اقترحوا آية وأنزلناها عليهم ولم يؤمنوا بها - يكون العذاب في إثرها ، فلو أننا أنزلناهم ولم يؤمنوا بهم لحق عليهم عذاب الاستئصال ولم يُنظرُوا ساعة من نهار .

والخلاصة - إنه ليس في إنزال الملائكة إليهم فائدة لهم بل فيه اللبس عليهم ، إلى ما فيه من الضرر المحقق لهم وهو الهلاك ، وحينئذ يفوت ما قضينا به من تأخيرهم وإخراج من أردنا إيمانه من أصلابهم .

ثم أجاب سبحانه عن قولهم الأول وردَّ إنكارهم تنزيل الذكر واستهزاءهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وسلاه على ذلك بقوله :

(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له حافظون) أى إنما أنتم قوم ضالون مستهزون ببينا ، وليس استهزاؤكم بضائه ، لأننا نحن نزلنا القرآن ونحن حافظوه ، فقولوا إنه محزون ، ونحن نقول : إنا نحفظ الكتاب الذى أنزلناه عليه من الزيادة والنقص والتغيير والتبديل والتحريف والمعارضة والإفساد والإبطال .

وسياتى فى مستأنف الأزمان من يتولون حفظه والذب عنه ويدعون الناس إليه ويستخرجون لهم ما فيه من عبر وحكم وآداب وعلوم تناسب ما تستخرجه

العقول من المخترعات ، وتستنبطه الأفكار من نظريات وآراء فيستدير بها العارفون ، ويهتدى بهديها المفكرون ، فلا تبتئس أيها الرسول بما يقولون وما يفعلون .
ثم سلى رسوله على ما أصابه من سفه قومه وادعائهم جنونه - بأن هذا ذأب الأمم المكذبة لرسولها من قبل ، فلقد أصابهم مثل ما أصابك من قومك ، فاستهزؤا بهم كما استهزأ قومك بك ، فنصرنا رسلنا وكتبنا أعداءهم وسيكون أمركم وأمرهم كذلك ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين ، وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) أى إننا أرسلنا قبلك رسلا للأمم قد مضت ، وما أتى أمة رسول إلا كذبوه واستهزؤوا به ، لما جرت به العادة من أن فعل الطاعات وترك اللذات - مستثقل على النفوس - إلى أنهم يدعونهم إلى ترك ما ألفوا من المعتقدات الخبيثة ، وترك عبادة الأوثان الباطلة ، وذلك مما يشق على النفوس ، إلى أن الرسول قد يكون فقيرا لا أعوان له ولا أنصار ، ولا مال ولا جاه ، فلا يتبعه الرؤساء وذوو البأس والقوة ، بل يعملون على مشاكسته ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، إلى أن الله يخذلهم ويلقى دواعي الكفر في قلوبهم على حسب السنن التي سننها لعباده كما يرشد إلى ذلك قوله :
(كذلك نسلكه في قلوب الجرمين ، لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين)
أى كذلك نلقى القرآن في قلوب الجرمين مستهزأ به غير مقبول لديهم ، لأنه ليس في نفوسهم استعداد لتلقى الحق ، ولا تضىء نفوسهم بمصابيح هدايته الربانية ، كما كانت حال الأمم الماضية حين ألقيت عليهم الكتب المنزلة من الملائكة الأعلى .
وقد جرت سنة الله في الأولين ممن بعث إليهم الرسل أن يخذلهم ويدخل الكفر والاستهزاء في قلوبهم ، ثم يهلكهم وتكون العاقبة للمتقين والنصر خليف رسله والمؤمنين ، فلك أسوة بالرسول قبلك مع أممهم المكذبة ، ولست بأوحدى في ذلك .

والخلاصة - هكذا نفعل باللاحقين كما فعلنا بالسابقين ، ويستهزئ بك

الجرمون ولا يؤمنون بكتابنا ، وسيحل بهم مثل ما حل بالأولين وتنصرك عليهم بعد حين كما قال : « وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ » .

ثم بين سبحانه عظيم عنادهم ومكابرتهم للحق فقال :

(ولو فتحننا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يمجرون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) أى ولو فتحنا على هؤلاء المعاندين بابا من السماء فظلوا في ذلك الباب يصعدون فيرون من فيها من الملائكة وما فيها من العجائب - لقالوا لفرط عنادهم وغلوهم في المكابرة : إنما سدت أبصارنا ، فما نراه تخيل لاحقيقة له ، وقد سحرنا محمد بما يظهر على يديه من الآيات .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » .

وخلاصة هذا - هبنا فتحنا عليهم بابا من السماء وقلنا لهم اخرجوا فيه ، أفلا يقولون في أنفسهم ويقول بعضهم لبعض : إنما سحرنا محمد كما يفعل علماء السيمياء إذ يفعلون أفعالا تخيل للإنسان أنه طائر وليس بطائر ، وكما يفعل علماء التنويم المغناطيسى في هذه الأيام ، فالمنوّم يقول المنوّم . أنت ملك . أنت امرأة . أنت كذا فيصدق كل ما قيل له . وهكذا في النوع البشرى أقوام لهم قدرة على استهواء العقول فيخيلون للإنسان ما لاحقيقة له ، وقد أصبح هذا العلم فنا يدرس في معاهد أوربا وأمريكا . فكيف يكون مثل هذا دليلا أو موجبا للتصديق ؟ كلا فإن أمثال ذلك لا يقوم بهداية نوع الإنسان .

وبعد فكيف يقترح هؤلاء عليك الآيات ، ويفرمون بما يخرق العادات ، من ملائكة يرونها ، وعجائب ينظرونها ، وهل تغنى تلك الآيات ، وهل النوع الإنسانى يكتفيه ما يخالف العادات ؟ فما يشتبهه على الناس بأفعال السحرة والمشعوذين يوقعهم

في اللبس ، فكم من نبي أيدناه بمثل تلك الآيات ولم يؤمن به من قومه إلا قليل منهم وما الآيات إلا ما تفهمه العقول ، وتمحصه القرائح درسا وتحليلا ، ونحنا واستنباطا .

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (١٨) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠)

شرح المفردات

البروج : واحدها برج وهي النجوم العظام ومنها نجوم البروج الاثني عشر المعروفة في علم الفلك ، للناظرين : أى المفكرين المستدلين بذلك على قدرة مقدرها ، وحكمة مدبرها ، وحفظناها : أى منعناها ، والرجيم : أى المرجوم المرمى بالرجام : أى الحجارة والمراد بالرجيم هنا المرمى بالنجوم ، واسترق من السرقة ، وهى أخذ الشيء خفية ، شبه به خطفتهم اليسيرة من الملاء الأعلى ، والسمع : المراد به ما يسمع ، والشهاب : الشعلة الساطعة من النار الموقدة ومن السحاب فى الجو ، وتبعت القوم تبعاً وتباعة بالفتح : أى مشيت خلفهم أو مروا بك فضيبت معهم ، وأتبع القوم إذا كانوا قد سبقوك فاحقتهم ، مددناها : أى بسطناها ، والرواسي : واحدها راسية وهى الجبال الثوابت ، موزون : أى مقدر بمقدار معين تقتضيه الحكمة والمصلحة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر شديد جحودهم وأنهم مهما أوتوا من الآيات لم يفهم ذلك شيئاً حتى بلغ من أمرهم أن ينكروا المشاهدات ويدعوا الخداع حين رؤية المبصرات

- أعقب هذا بيان أنهم قد كانوا في غنى عن كل هذا ، فإن في السماء وبروجها العالية ، وشموسها الساطعة ، وأقمارها النيرة ، وسياراتها الدائرة ، وثوابتها الباسقة ، عبرة لمن اعتبر ، وحجة لمن ادّكر ، فهلاًّ نظرُوا إلى الكواكب وحسابها ونظامها ومداراتها ، وكيف حدثت بها الفصول والسنون ، وكيف كان ذلك بمقادير محدودة وأوقات معلومة ؟ لا تغيير فيها ولا تبدل ، فبأمثال هذا يكون اليقين ، وبالتدبر فيه تقوى دعائم الدين ، ويشدد أزر سيد المرسلين .

وهلا رَأُوا الأرض كيف مدّت ، وثبتت جبالها ، وأنبئت نباتها ، بمقادير معلومة موزونة في عناصرها وأوراقها ، وأزهارها وثمارها ، وجعل فيها معاش للإنسان والحيوان ، أفلا يعتبرون بكل هذا ؟ « فِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ » .

الإيضاح

(ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للنظرين) أى ولقد خلقنا في السماء نجومها كباراً ثوابت وسيارات ، وجعلناها وكواكبها بهجة لمن تأمل وكرر النظر فيما يرى من عجائبها الظاهرة ، وآياتها الباهرة التي يحار الفكر في دقائق صنعتها ، وقدرة مبدعها .

ونحو الآية قوله تعالى : « إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ » .

(وحفظناها من كل شيطان رجيم) أى ومنعنا كل شيطان رجيم من القرب منها كما قال في آية أخرى : « وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ » أى وحفظناها من كل شيطان خارج من الطاعة برميهِ بالشهب كما تحفظ المنازل من متجسس يخشى منه الفساد .

(إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين) أى لكن من أراد اختطاف شيء من عالم الغيب مما يتحدث به الملائكة في الملأ الأعلى - تبعه كوكب مشتعل

نارا ظاهرا للبصرين فأحرقه ، ولم يصل إلى معرفة شيء مما يدبر في ملكوت السموات ، وبهذا المعنى قوله : « لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُنْذِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ »

وجاء بمعنى الآية قوله في سورة الجن حكاية عنهم : « وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاَهَا مُؤَلَّتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ، وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا » وقوله في سورة الملك : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ » .

وبعد فالكاتب الكريم أخبر بأن الشياطين أرادوا أن يختطفوا شيئاً من أخبار الغيب مما لدى الملائكة الكرام ، فسلطت عليهم الشهب المشتعلة والنجوم المتقدة فأحرقتهم ، ولا نبعث عن معرفة كنه ذلك ، ولا نعلم في النظر لندرك حقيقة ، لأننا لم نوت من الوسائل والأسباب ما يمكننا من معرفة ذلك معرفة صحيحة ، تجعلنا نؤمن به إيماناً مبنياً على البرهان بوسائله المعروفة ، وليس لنا إلا التصديق بما جاء في الكتاب وأوحى به إلى النبي الكريم ، والبحث وراء ذلك لا يقفنا على علم صحيح بل على حدس وتخمين لاحاجة المسلم به للاطمئنان في دينه ، فالأحرى به أن يعرض عنه لئلا يحميد عن القصد ويضل عن سواء السبيل .

وبعد أن ذكر الدلائل السماوية على وحدانيته أتبعها بذكر الدلائل الأرضية فقال : (والأرض مددناها) أى وقد بسطنا الأرض وجعلناها ممتدة الطول والعرض والعمق ، ليتمكن الارتفاع بها على الوجه الأكمل ، وهذا فيما يظهر في مرأى العين ، فلا يدل على نفى الكروية عن الأرض ، لأن الكرة العظيمة ترى كالسطح المستوي (وألقينا فيها رواسي) أى وجعلنا فيها جبالاً ثوابت خوفاً أن تضطرب بسكانها كما قال في آية أخرى : « وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ » وقد سبق تفصيل ذلك في سورة الرعد .

(وأُنبتنا فيها من كل شيء موزون) أى إن كل نبات قد وزنت عناصره وقدرت تقديرا ، فترى العنصر الواحد يختلف فى نبات عنه فى آخر بواسطة امتصاص الغذاء من العروق الضاربة فى الأرض ومنها يرفع إلى الساق والأغصان والأوراق والأزهار ، والذي حدد هذا الاختلاف ، تلك الفتحات الشعرية التى فى ظواهر الجذور ، وثقوب كل نبات لاتسع إلا المقدار اللازم لها من العناصر وتطردها ما سواه ، لأنه لا يلائمها ، إذ هى قد كونت على هيئة خاصة بحيث لاتبتلع إلا تلك المقادير بعينها .

وهناك عنصر البوتاس تره يدخل فى حب الذرة الذى نأكله بمقدار ٣٢٪ .
وفى القصب ٣٤٣٪ . وفى البرسيم بمقدار ٣٤٦٪ . وفى البطاطس بمقدار ٦١٥٪ .
وبهذا التفاوت صالح القصب لأن يكون سكرا ، والبرسيم لأن يكون قوتا للبهائم ، والذرة والبطاطس لأن تكونا قوتا للإنسان .

وحسبك دليلا على ذلك ما تجده فى سورة الرحمن من قوله : « وَوَضَعَ الْمِيزَانَ
أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ » كما نظم سبحانه الكواكب فى سيرها وفى أوضاعها وفى حركاتها وفى أضواءها ، ووزن عناصرها بمقادير يتناسب بعضها مع بعض .
فلك الحمد ربنا جعلت كل شيء فى الحياة موزونا بقدر معلوم لتقدير نظم الحياة فنعرف قدرة منشىء العالم وأنه لم يخلق شيئا فيه جزافا ، بل قدره بقدر معلوم ، ليكون فيه دليل على قدرة المبدع والمدير له حال وجوده .

(وجعلنا لكم فيه معاش) أى إن أنواع معاشكم من غذاء وماء ولباس ودواء قد سخرناها لكم فى الأرض ، فلا السمك فى البحر غذيتموه ، ولا الطير فى الجو ربيتموه ، ولا غيرها من أشجار الجبال والغابات وحيوان البر والبحر خلقتموه .
(ومن لستم له برازقين) أى وجعلنا لكم فيها من لستم رازقيه من العيال والمماليك والخدم والدواب ، وفى هذا إيماء إلى أن الله يرزقهم وإياهم لا أنهم يرزقون منهم ، وفى ذلك عظيم المنة وجزيل الفضل والعطاء وواسع الرحمة لعباده .

وخلاصة هذا — إنه سبحانه يسر لكم أسباب المكاسب ، وصنوف المعاش
وسخر لكم الدواب التي تركبونها ، والأنعام التي تأكلونها ، والعبيد التي
تستخدمونها ، فكل أولئك رزقهم على خالقهم لا عليكم ، فلكم منها المنفعة ورزقها
على الله تعالى .

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١)
وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَا كُومَهُ وَمَا أَنْتُمْ
لَهُ بِمُخَازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنَمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ
عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ
يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥) .

شرح المفردات

الخزائن : واحدها خزانة وهي المكان الذي يحفظ فيه نفائس الأموال ،
واللواقح : واحدها لاقح أى ذات لقاح وحمل ، وأسقينا كومه : أى جعلناه لكم
سقى لمزارعكم ومواشيكم ، تقول العرب إذا سقت الرجل ماء أولبنا سقيته وإذا أعدوا
له ماء لشرب أرضه أو ماشيته قالوا أسقيته أو أسقيت أرضه أو ماشيته ، والمستقدمين :
من ماتوا ، والمستأخرين : الأحياء الذين لم يموتوا بعد .

المعنى الجملى

بين سبحانه فيما سلف أنه أنزل النبات وجعل لنا فيه معاش في هذه الحياة
وهنا أتبعه بذكر ما هو كالسبب في ذلك ، وهو أنه تعالى مالك كل شيء ، وأن كل
شيء سهل عليه ، يسير لديه ، فإن عنده خزائن الأشياء من النبات والمعادن النفيسة
والخلوقات البديعة مما لا حصر له .

الإيضاح

(وإن من شيء إلا عندنا خزائنه) أى ما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده والإنعام به متى أردنا دون أن يكون تأخير ولا إبطاء ، نفرائن ملكتنا مليئة بما تحبون من النفائس ، غير محجوبة عن الباحث الساعى إلى كسبها من وجوهها على حسب السنن التى وضعناها ، والنظم التى قدرناها ، ولا يمنعها مانع ، ولا يستطيع دفعها دافع ، فهى تحت قبضة الطالب لها إذا أحسن السعى ، وأحكم الطلب كما قال : « فَاْمْسُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ » .
 (وما ننزله إلا بقدر معلوم) أى وما نعطي ذلك إلا بقسط محدود نعلم أن فيه الكفاية لدى الحاجة ، وفيه الرحمة بالعباد كما قال : « كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » .

وقد جرت سنة القرآن بأن يسمى ما يصل إلى العباد بفضل الله وجوده إنزالا كما قال : « وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ » وقال : « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ » .
 ثم فصل بعض ما فى خزائنه من النعم فقال :

(وأرسلنا الرياح لواقح) أى إن من فضله على عباده وإحسانه إليهم أن أرسل إليهم الرياح لواقح ، ويكون ذلك على ضروب :

(١) أن يرسلها حاملات للسحاب فتلقح بها الأشجار بما تنزل عليها من الأمطار فتغيرها من حال إلى حال فتعطيها حياة جديدة؛ إذ تزدهر أزهارها ، وتثمر أغصانها ، بعد أن كانت قد ذبلت وصوّحت وأصبحت فى رأى العين كأنها ميتة لاهية فيها كما قال تعالى : « وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَفَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ » .

(٢) أن يرسلها ناقلة لقاح الأزهار الذكور إلى الأزهار الإناث لتخرج الثمر والقواكه للناس .

(٣) أن يرسلها لتزيل عن الأشجار ما علق بها من الغبار لينفذ الغذاء إلى مساهمها فيكون ذلك رياضة للشجر والزرع كرياضة الحيوان .

(فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناهموه) أى فأنزلنا من السحاب مطرا فأسقيناهم ذلك المطر لشرب زرعكم ومواشيكم ، وفى ذلك استقامة أمور معاشكم وتدير شؤون حياتكم إلى حين كما قال : « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا » .

(وما أنتم له بحازنين) أى ولستم بخازنى الماء الذى أنزلناه فتمنعوه من أن أسقيه من أشاء ، لأن ذلك بيدى وهو خاضع لسلطانى ، إن شئت حفظته على سطح الأرض وإن شئت غار فى باطنها وتخلل طبقاتها ، فلا أبقى منه شيئا ينفع الناس والحيوان ويسقى الزرع الذى عليه عماد حياتكم .

والخلاصة — نحن القادرون على إيجاد وخنه فى السحاب وإنزاله ، وما أنتم على ذلك بقادرين .

وبعد أن ذكر نظم المعيشة فى هذه الحياة ذكر إحياء الإنسان وإماتته فقال : (وإنا لنحن نحي ونميت ونحن الوارثون) أى وإنا لنحي من كان ميتا إذا أردنا ، ونميت من كان حيا إذا شئنا ، ونحن نرث الأرض ومن عليها فنميتهم جميعا ولا يبقى حى سوانا ، ثم تبعهم كلهم ليوم الحساب فيلاقى كل امرئ جزء ما عمل إن خيرا وإن شرا .

ثم أقام الدليل على إمكان ذلك وأثبت قدرته عليه فقال :

(ولقد علمنا المتقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين) أى ولقد علمنا من مضى منكم وأحسيناهم وما كانوا يعملون ، ومن هو حى ومن سيأتى بعدكم ، فلا تخفى علينا أحوالكم ولا أعمالكم ، فليس بالعسير علينا جمعكم يوم التناد للحساب والجزاء يوم ينفخ فى الصور كما قال :

(وإن ربك هو يحشرهم) فيجمع الأولين والآخرين عنده يوم القيامة ، من أطاعه منهم ومن عصاه ويجازى كلا بما عمل على حسب ما وضع من السنن ، وقدّر من ارتباط المسببات بأسبابها ، وجعل لكل عمل جزاء له .
ثم أكد هذا وزاده إيضاحا فقال :

(إنه حكيم عليم) أى إنه تعالى باهر الحكمة واسع العلم ، فهو يفعل ما يشاء على مقتضى الحكمة والعدل ، وما يؤيده من سعة العلم والفضل .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ
خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ الْمَلَائِكَةَ إِنِّي
خَالِقُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ
فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ
أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ
يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ
لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَخْرُجْ
مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ
رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧)
إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي
الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ
هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا بِنِ

اتَّبِعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤) .

شرح المفردات

صلصال : أى طين يابس يصلصل ويصوت إذا نقر وهو غير مطبوخ ، فإذا طبخ فهو فخار ، وحما : أى طين تغير واسود من مجاورة الماء له واحدته حماة ، ومسنون : أى مصور مفرغ على هيئة الإنسان كالجواهر المذابة التى تصب فى القوالب ، والجان أى هذا الجنس كما أن الإنسان يراد به ذلك ، فإذا أريد بالإنسان آدم أريد بالجان أبو الجن ، ونار السموم : هى النار الشديدة الحرارة التى تقتل وتنفذ فى المسام ، بشرا : أى إنسانا وسمى بذلك لظهور بشرته أى ظاهر جلده ، سويته : أى أتمت خلقه وهياته لنفخ الروح فيه ، والنفخ : إجراء الريح من القم أو غيره فى تجويف جسم صالح لإمساكها والامتلاء بها ، ويراد به هنا إضافة ما به الحياة على المادة القابلة لها ورجيم : أى مرجوم مطرود من كل خير وكرامة ، اللعنة : الإبعاد على سبيل السخط يوم الدين : أى يوم الجزاء ، فأنظرنى : أى أهلكنى وأخرنى ولا تمتنى ، ويوم الوقت المعلوم : هو وقت النفخة الأولى حين تموت الخلائق كما روى عن ابن عباس ، والإغواء : الإضلال ، هذا صراط على : أى هذا صراط حق لا بد أن أراعيه ، مستقيم : أى لا انحراف فيه فلا يعدل عنه إلى غيره ، والسلطان : التسلط والتصرف بالإغواء ، سبعة أبواب : أى سبع طبقات ، جزء مقسوم : أى فريق معين مفروز من غيره :

الإيضاح

(ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون) أى ولقد خلقنا أول فرد من أفراد الإنسان من طين يابس يصلصل ويصوت إذا نقر ، أسود متغير مفرغ فى قالب ليحفظ ويبس كالجواهر المذابة التى تصب فى القوالب .

ونحو الآية قوله : « خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ . وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ » وقد جاء خلق آدم على أطوار مختلفة فكان أولا ترابا كما قال : « إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ » ثم كان طينا كما قال : « إِنِّي خَالِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ » ثم كان صلصالا من حمأ مسنون كما جاء في هذه الآية وإنما خلقه على ذلك الوضع ليكون خلقه أعجب وأتم في الدلالة على القدرة .

(والجنان خلقناه من قبل من نار السموم) أى وخلقنا هذا الجنس من قبل خلق آدم من نار الريح الحارة التى لها لفتح وتقتل من أصابته .

وعن ابن مسعود هذه السموم جزء من سبعين جزءا من السموم التى خلق منها الجن ثم قرأ : (والجن خلقناه من قبل من نار السموم) وقد ورد فى الصحيح « خلقت الملائكة من نور ، وخلقت الجن من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » .

وفى الآية إيماء إلى شرف آدم عليه السلام وطيب عنصره وطهارة محتده ، وعلمنا أن نؤمن بأن الجن خلقت من النار، ولسكننا لانعرف كنه ذلك ولا حقيقته ، فذلك ما لاسبيل إلى معرفته إلا من طريق الوحي .

و بعد أن ذكر سبحانه فى معرض الدليل على قدرته - خلق الإنسان الأول ، ذكر بعده مقاله للملائكة والجن بشأنه فقال :

(وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين . قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون) أى واذكر أيها الرسول لقومك حين نوه ربكم بذكر أيكم آدم فى ملائكته قبل خلقه ، وتشريفه بأمر الملائكة بالسجود له ، وتخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة حسدا وعنادا واستكبارا بالباطل فقال : لم أكن لأسجد الخ .

وحكى عنه في آية أخرى أنه قال : « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » .

وتقدم هذا القصص في سورة الأعراف وقلنا هناك : إن الأمر بالسجود أمر تكليفي ، وأنه قد وقع حوار بين إبليس وربه ، ويرى كثير من العلماء أن القصة بيان لغرائز البشر والملائكة والشيطان ، إذ جعل الملائكة وهم المذبذبون لأموال الأرض بإذن ربهم مستخرون لآدم وذريته ، وجعل هذا النوع مستعدا للانتفاع بالأرض كلها لعالمه بسنن الله فيها وعمله بهذه السنن ، فانتفع بمائها وهوائها ومعادنها ونباتها وحيوانها وكهر بانها ونورها ، وبذا أظهر حكمة الله في خلقها ، واصطفى بعض أفرادهم وخصهم بوحية ورسالاته وجعلهم مبشرين ومنذرين ، وجعل الشيطان عاصيا متمردا على الإنسان وعدوا له ، وجعل النفوس البشرية وسطا بين النفوس المملكية المقطورة على طاعة الله وإقامة سننه في صلاح الخلق ، وبين أرواح الجن الذين يغلب على شرارهم - الشياطين - التمرد والعصيان .

وقد ذكر سبحانه حجاج إبليس وذكر سبب امتناعه عن السجود لآدم بأنه خير منه فإنه خلق من النار وآدم من الطين والنار خير من الطين وأشرف منه ، والشریف لا يعظم من دونه ولو أمره ربه بذلك .

وفي هذا ضروب من الجهالة وأنواع من الفسق والعصيان فإنه :

- (١) اعترض على خالقه بما تضمنه جوابه ..
- (٢) احتج عليه بما يؤيد به اعراضه
- (٣) إنه جعل امتثال الأمر موقوفا على استحسانه وموافقته لهواه ، وهذا رفض لطاعة الخالق وترفع عن مرتبة العبودية .

(٤) استدلاله على خيريته بالمادة التي منها التكوين ، وخيرية المواد بعضها على بعض أمر اعتباري تختلف فيه الآراء ، إلى أن الملائكة خلقوا من النور وهو قد خلق من النار ، والنور خير من النار ، وهم قد سجدوا امتثالا لأمر ربهم .

(٥) إنه قد جهل ما خص به آدم من استعداده العلمى والعملى أكثر من سواه، ومن تشريفه بأمر الملائكة بالسجود له، فكان بذلك أفضل منهم، وهم أفضل من إبليس بعنصر الخلقة والطاعة لربهم .

(قال فأخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين . قال رب فأنتظرني إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم) أمره سبحانه أمرا كونيا لا يخالف بالخروج من المنزلة التى كان فيها من الملائكة الأعلى ، ثم جعله مرجوما مطرودا وأتبعه لعنة لاتزال متواصلة لاحقة به متواترة عليه إلى يوم القيامة وهو يبعث الخلق من قبورهم فيحشرون لموقف الحساب وهو وقت النفخة الأولى ، فلما تحقق النظر .

(قال رب بما أغويتني لأزيننَّ لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين) أى قال إبليس : رب بسبب إغوائك إياي وإضلالى لأزيننَّ لذرية آدم وأحببنَّ إليهم المعاصى وأرغبهم فيها ولأغوينهم كما أغويتني وقدرت على ذلك إلا من أخلص منهم لطاعتك ، ووقفته لهدايتك ، فإن ذلك ممن لاساطان لى عليه ولا طاقة لى به .

ثم هدده سبحانه وأوعده بقوله :

(قال هذا صراط على مستقيم) أى قال هذا طريق مرجعه إلى فأجازى كل امرئ بعمله إن خيرا نخير وإن شرا فشر ، كما يقول القائل لمن يتوعده ويتهدده : طريقك على . وأنا على طريقك : أى لا مهرب لك منى ، ونظير الآية قوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ » .

وهذا رد لما جاء فى كلام إبليس حيث قال : « لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَا يَنبَغُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ » الآية .

(إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) أى إن عبادى

لأسلطان لك على أحد منهم سواء أكانوا مخلصين أم غير مخلصين ، لكن من أتبعك باختياره صار من أتباعك .

وقال سفيان بن عيينة : ليس لك عليهم قوة ولا قدرة على أن تلقهم في ذنب يضيق عنه عفوى .

والخلاصة — إن إبليس أُوهم أن له على بعض عباد الله سلطانا بقوله لأنين لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ، فأكذبه الله بقوله إن عبادي الخ .

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عن إبليس : « وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي » وقوله : « إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ » .

(وإن جهنم لموعدهم أجمعين) أى وإن جهنم موعدهم جميع من أتبع إبليس وهى مقرهم وبئس المهاد جزاء ما اجترحوا من السيئات وكفاء ما دنسوا به أنفسهم من قبيح المعاصى .

(لها سبعة أبواب) أى لها سبع طبقات ينزلونها على حسب مراتبهم فى العوایة والضلالة .

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها : جهنم والسعير ولظى والحطمة وسقر والجحيم والهاوية وهى أسفلها .

(لكل باب منهم جزء مقسوم) أى كتب لكل باب منها فريق معين من أتباع إبليس يدخلونه ولا يحيد لهم عنه على حسب أعمالهم واختلاف مراتبهم فى النار .

قال ابن جريج : النار سبع دركات وهى جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية ؛ فأعلاها للعصاة الموحدين ، والثانية لليهود ، والثالثة للنصارى ، والرابعة للصائين ، والخامسة للمجوس ، والسادسة للمشركين ، والسابعة للمنافقين ، فجهنم أعلى الطبقات ثم ما بعدها تحتها وهكذا ..

وروى عن ابن عباس أن جهنم لمن ادعى الربوبية ، ولظى لعبد النار ، والحطمة لعبد الأصنام ، وسقر لليهود ، والسعير للنصارى ، والجحيم للصابئين ، والهاوية للموحدين العصاة ، وهؤلاء يرجى لهم ولا يرجى لغيرهم أبدا . وليس في هذا أثر مرفوع يمكن أن يركن إليه ويجعل حجة فيه .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ (٤٦)
وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) .

شرح المفردات

المتقون : هم الذين اتقوا الكفر والفواحش ولهم ذنوب من الصغائر تكفرها الصلوات وغيرها ، جنات : أى بساتين ، وعيون : أى أنهار جارية ، بسلام : أى سلامة من الآفات وأمن من الخفافات ، والغل : الحقد الكامن في القلب ، والسرر : واجدها سرير وهو مجلس رفيع مهيأ للسرور ، والنصب : الإعياء والتعب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حال أهل الغواية وبين أنهم في نار جهنم يخلدون فيها أبدا وأنهم يكونون في طبقات بعضها أسفل من بعض بمقدار ما اجتروا من السيئات ، واقتروا من المعاصي - أرففه يذكر حال أهل الجنة وما يتمتعون به من نعيم مقيم ، ووافق بعضهم مع بعض ، لا ضغن بينهم ولا حقد ، وهم يتحدثون على سرر متقابلين ولا يجدون مس التعب والنصب ، ولا يخرجون منها أبدا .

الإيضاح

(إن المتقين في جنات وعيون) أى إن الذين اتقوا الله وخافوا عقابه فأطاعوا أوامره واجتنبوا نواهيه - يتمتعون في جنات تجري من تحتها الأنهار كما قال : « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ » الآية .

(ادخلوها بسلام آمنين) أى ويقال لهم : ادخلوها وأنتم سالمون من الآفات والمنغصات ، آمنون من سلب تلك النعم التي أنعم بها ربكم عليكم وأكرمكم بها ولا تخافون إخراجا ولا فناء ولا زوالا .

(ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين) أى وأخرجنا ما في صدور هؤلاء المتقين الذين ذكرت صفتهم - من حقد وضعينة بعضهم لبعض .

روى القاسم عن أبي أمامة قال : يدخل أهل الجنة الجنة على ما في صدورهم في الدنيا من الشحناء والضغائن ، حتى إذا توافوا وتقابلوا نزع الله ما في صدورهم في الدنيا من غل ثم قرأ : (ونزعنا ما في صدورهم من غل) .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن علي كرم الله وجهه أنه قال لابن طلحة : إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك من الذين قال الله تعالى (ونزعنا ما في صدورهم) الآية . فقال رجل من همدان : إن الله سبحانه أعدل من ذلك ، فصاح على صيحة تداعى لها القصر ، وقال : فمن إذا إن لم تكن نحن أولئك .

والخلاصة - إن الله طهر قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنة ونزع منها كل غل وألقى فيها التواد والتحاب والتصافي ، والمراد بكونهم على سرر متقابلين أنهم في رفعة وكرامة ، وقد روى أن الأسرة تدور بهم حيث داروا فهم في جميع أحوالهم متقابلين لا ينظر بعضهم إلى ألفية بعض ، وهم يجتمعون ويتنادمون ويتزاورون ويتواصلون .

(لا يمتسهم فيها نصب) أى لا يلحقهم فى تلك الجنات مشقة ولا أذى ، لأنهم ليسوا فى حاجة إلى ما يوجب ذلك من السعى فى تحصيل ما لا بدّ لهم منه ، لحصول كل ما يشتهون من غير مزاولته عمل .

روى الشيخان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله أمرنى أن أبشر خديجة ببیت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب .

(وما هم منها بمخرجين) أى وهم خالدون فيها أبدا لا يرحلون عنها ، يشعرون بلذة النعيم ودوامه ، فهم فى خلود بلا زوال ، وكال بلا نقصان ، وفوز بلا حرمان .
وإخلاصة — إن المسرة بالنعيم لا تتم إلا إذا توافرت أمور :

(١) أن يكون مقرونا بالتعظيم ، وإلى ذلك الإشارة بقوله : (ادخلوها بسلام آمنين) .

(٢) أن يكون خالصا من شوائب الضرر ، روحانية كانت كالحقد والحسد والغضب ، وإلى ذلك الإشارة بقوله (ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا) أوجسانية كالأعياء والتعب ، وإلى ذلك الإشارة بقوله (لا يمتسهم فيها نصب) .

(٣) أن يكون دائما غير قابل للزوال ، وإلى ذلك الإشارة بقوله (وما هم منها بمخرجين) .

نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ
الْأَلِيمُ (٥٠) وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا
قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣)
قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمِمْ بُشِّرْتُمُونِ (٥٤) قَالُوا بَشِّرْنَاكَ
بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَاطِنِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ

إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا
 إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٦٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ
 قَدَرْنَا إِنَّمَا لَبَنَ الْعَابِرِينَ (٦٠) فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ
 إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَسْتَمْتُونَ
 (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ
 وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥)
 وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هُوْلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦) وَجَاءَ
 أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨)
 وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ؟ (٧٠) قَالَ
 هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ
 (٧٢) فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا
 عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّالْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّمَا
 لِبَيْتِهِمْ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ
 الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (٧٨) فَاتَّقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩) وَلَقَدْ
 كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا
 مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذْتَهُمُ
 الصَّيْحَةُ مُّصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤)

شرح المفردات

تقول : أنبأت القوم بإنباء ونبأتهم تنبئة : إذا أخبرتهم ، والأفصح في كلمة الضيف : ألا تثني ولا تجمع حين تستعمل المعنى والجمع والمؤنث بل تستعمل بلفظ واحد لكل ذلك ، والوجل : اضطراب النفس لخوفها من توقع مكروه يصيبها ، عليم : أى ذى علم كثير ، بالحق : أى بالأمر المحقق الذى لا شك فى وقوعه ، وقنط من كذا : أى يئس من حصوله ، والضالون : الكفار الذين لا يعرفون كمال قدرته تعالى وسعة رحمته ، وخطبكم : أى أمركم وشأنكم الذى لأجله أرسلتم ، قدرنا : أى قضينا وكتبنا ، يقال قضى الله عليه كذا وقدره عليه : أى جعله على مقدار الكفاية فى الخير والشر ، وقدر الله الأقوات : جعلها على مقدار الحاجة ، والغابرين : أى الباقين مع الكفار ليهلكوا معهم ، وأصله من الغبرة وهى بقية اللبن فى الضرع ، منكرون : أى لا أعرفكم ولا أعرف من أى الأقوام أنتم ؟ ولأى غرض دخلتم على ؟ ويمترون : أى يشكون ويكذبون به ، فأسر بأهلك : أى اذهب بهم ليلا ، والقطع من الليل : الطائفة منه كما قال :

افتحى الباب وانظري فى النجوم كم علينا من قطع ليل بهم

اتبع أدبارهم : أى كن على إثرهم لتسرع بهم وتطلع على أحوالهم ، وقضينا : أى أوحينا ، ودابرهم : آخرهم ، ومقطوع : أى مهلك مستأصل ، محبجين : أى فى وقت الصباح ، والمدينة : هى سدوم (بالذال المعجمة) مدينة قوم لوط ، والاستبشار : إظهار السرور ، والفضيحة : إظهار ما يوجب العار ، والخزى : الذل والهوان ، والعمر (بالفتح والضم) : الحياة ، وهو حين القسم بالفتح لا غير ، سكرتهم ، غوايتهم ، يعمهون : أى يتحيرون ، والصيحة : الصاعقة ، وكل شئ أهلك به قوم فهو صيحة وصاعقة أخرجه ابن المنذر عن ابن جرير ، ومشرقين : أى داخلين فى الشروق وهو بزوغ الشمس ، والسجيل : الطين المتحجر وهو مغرب لاعربى فى المشهور ،

المتوسمين : أى المتفرسين الذين يتثبتون فى نظرهم ليعرفوا سمة الشئ وعلامته ، يقال
توسمت فى فلان خيرا : أى ظهرت لى منه علاماته ، قال عبد الله بن رواحة يمدح
النبي صلى الله عليه وسلم :

إنى توسمت فىك الخير أعرفه والله يعلم أنى ثابت البصر
لبسبيل مقيم : أى لبطريق واضح معلم ليس بخفى ولا زائل ، وأصحاب الأيكة :
قوم شعيب عليه السلام ، والأيكة : الغيضة ، وهى الشجر الملتف بعضه على بعض
وقد كانوا فى مكان كثير الأشجار كثيف الغبار ، إمام ميين : أى لبطريق واضح
وأصل الإمام ما يؤتم به سى به الطريق لأنه يؤتم ويتبع ، وأصحاب الحجر : هم ثمود ،
والحجر : واد بين المدينة والشام كانوا يسكنونه ، ويسمى كل مكان أحيط بالحجارة
حجرا ومنه حجر الكعبة ، وآياتنا : هى الذاقة وفيها آيات كثيرة كعظم خلقها وكثرة
لبنها وكثرة شربها ، والإمام : ما يؤتم به ومن جملة ذلك الطريق التى تسلك .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أوعده به أهل الغواية فى يوم القيامة من دخول جهنم ،
وذكر أنها دركات لأولئك الغاوين على حسب اختلاف أحوالهم بتقدير ما دنسوا به
أنفسهم من اتخاذ الأنداد والشركاء وارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ،
ثم أعقبه بذكر ما أعد لعباده المؤمنين من الجنات والعيون والنعيم المقيم والراحة التى
لا نصب بعدها ولا تعب ، والجلوس بعضهم مع بعض يتنادمون ويتجادون أطراف
الأحاديث وهم فى سرور وحبور على سرر متقابلين - أردف ذلك بفذلكة وخلاصة
لما سبق ، فأمر نبيه أن يبلغ عباده أنه غفار للذنوب من تابوا وأنابوا إلى ربهم ، وأن
عذابه مؤلم لمن أصرروا على المعاصى ولم يتوبوا منها ، ثم فصل ذلك الوعد والوعيد
فذكر البشارة لإبراهيم بسلام عليم ، وذكر إهلاك قوم لوط بما اجترحوا من كبرى
الموبقات ، وفطع الجنايات ، بفعلهم فاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالمين ، حتى

صاروا كأنهم الدابر وأصبحوا أثرا بعد عين ، وإهلاك أصحاب الأيكة قوم شعيب جزاء ظلمهم بشركهم بالله ونقصهم للمكاييل والموازين ، فانتقم الله منهم بعداب يوم الظلة ، وإهلاك أصحاب الحجر وهم ثمود الذين كذبوا صالحا وكانوا ذوى حول وطول وغنى ومال وقوة وبطش ، فأعرضوا عن آيات ربهم حينما جاءتهم على يدى رسوله ، فأخذتهم الصيحة وقت الصباح ولم يغن عنهم ما لهم من دون الله شيئا حين جاء أمره .

أخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق عطاء بن أبي رباح عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : « طلع علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الباب الذى يدخل منه بنو شيبه فقال : (ألا تراكم تضحكون) ثم أدبر حتى إذا كان عند الحجر رجع إلينا الفهقرى فقال : إني لما خرجت من الباب جاء جبريل عليه السلام فقال يا محمد إن الله يقول لك : لِمَ تَقْنَطُ عبادى (نبيّ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم) . »

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنه قال فى قوله (نبيّ عبادى) الآية : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام ، ولو يعلم العبد قدر عذاب الله لابتغى نفسه . »

وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله سبحانه خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة ، فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة وأرسل فى خلقه كلهم رحمة واحدة ، فلو يعلم الكافر كل الذى عنده من رحمة لم يئأس من الرحمة ، ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله تعالى من العذاب لم يأمن من النار . »

الإيضاح

(نبيّ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم) أى أخبر أيها الرسول عبادى أنى أنا الذى يسترد ذنوبهم إذا تابوا منها وأنابوا بترك فضيحتهم بها وعقوبتهم عليها ،

الرحيم بهم أن أعذبهم بعد توبتهم منها . وفي قوله (نبي عبادي) إيماء إلى أنه ينبغي كل من كان معترفا بعبوديته ، فيشمل ذلك المؤمن للطيع والمعاصي ، وغير خاف مافي ذلك من تغليب جانب الرحمة من قبله تعالى على جانب العقاب .

(وأن عذابي هو العذاب الأليم) أى وأخبرهم أيضا بأن عذابي لمن أصر على معاصي وأقام عليها ولم يتب منها - هو العذاب المؤلم الموجه الذى لا يشبهه عذاب آخر ، وفى هـ - هذا تهديد شديد وتحذير لخلقهم أن يقدموا على معاصيه ، ومن الأمر لهم بالإنبابة والتوبة .

والمخلاصة - إن الله جمع لعباده بين التبشير والتحذير ليكونوا على قدمي الرجاء والخوف وحال الأنس والهيبة .

ثم ذكر سبحانه قصصا تقدم مثله بأسلوب آخر في سورة هود وبدأ بقصص إبراهيم عليه السلام فقال :

(ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما) أى أخبر عبادي عن ضيوف إبراهيم خليل الرحمن وهم الملائكة الذين أرسلهم الله إلى قوم لوط ليستأصلوا شأقتهم ويبيدوهم على ظلمهم ، فقالوا حين دخلوا عليه سلاما : أى سلمت من الآفات والآلام سلاما .

(قال إنا منكم ورجلون) أى قال إبراهيم للضيف : إنا خائفون منكم ، لأنهم دخلوا عليه بلا إذن وفي وقت لا يحجى في مثله طارق ، أو لأنه حين قرب إليهم العجل الحنيد لم يأكلوا منه ، والضيف إذا لم يأكل مما يقدم له من الطعام يظن أنه لم يأت خيرا ، ويؤيد هذا قوله في سورة هود : « فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً » .

(قالوا لا تجمل) أى قال الضيف لإبراهيم : لا تحف ولا يجم حول ساحتك الحزن واللمع .

ثم علل النهي عن الوجل بقوله :

(إنا نبشرك بغلام عليم) أى إنا جئناك بالبشرى بغلام ذى علم وفطنة وفهم لدين الله ، وسيكون له شأن لأنه سيصير نبيا .

ونحو الآية قوله : « وَبَشِّرْناه بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا » .

ثم قال إبراهيم متعجبا من محبىء ولد من شيخ وعجوز :

(أبشرتمنى على أن مسنى الكبر ؟) أى أبشرتمنى بذلك مع مس الكبر

وتأثيره فى ، وتلك حال تنافى هذه البشرى .

(فم تبشرون) أى فبأى أعجوبة تبشرون ؟ إذ لاسبيل فى العادة إلى مثل

ذلك ، وكأنه عليه السلام أراد أن يعرف : أيعطى هذا الولد مع بقاءه على حاله من

الشيخوخة التامة ، أو يرجع شابا ثم يعطى الولد ، لما جرت به العادة من أن الولد

لا يكون إلا حين الشباب .

فأجابه مؤكدين ما بشروه به تحقيقا لما قالوا وليكون بشارة بعد بشارة .

(قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين) أى قال ضيف إبراهيم له :

بشرناك بما يكون حقا ، وإنا لنعلم أن الله قد وهب لك غلاما ، فلا تكن من الذين

يقنطون من فضل الله فيياسوا من خرق العادة ، بل أبشر بما بشرناك به

واقبل البشرى .

والخلاصة — إنه عليه السلام استعظم نعمة الله عليه فاستفهم هذا الاستفهام

التعجبى المبني على السنن التى أجراها الله بين عباده ، لأنه استبعد ذلك على قدرة

الله ، فهو أجل من ذلك قدرا ، ويؤيد هذا جوابه عليه السلام .

(قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) أى قال إبراهيم للضيف : لا يئأس

من رحمة الله إلا من أخطأ سبيل الصواب ، وغفل عن رجاء الله الذى لا يخيب من

رجاء ، فضل بذلك عن رأى القيم ، وهذا كقول يعقوب : « لَا يَيْئَاسُ مِنْ رَوْحِ

اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » .

وخلاصة مقاله — إنه نفى القنوط عن نفسه على أتم وجه ، فكأنه قال : ليس
بني قنوط من رحمته تعالى ، لكن حالي تنافى فيض تلك النعم الجليلة التي غفرتي بها ،
وتوالي المكرمات التي شملت آل هذا البيت .

و بعد أن تحقق عليه السلام مصداق هذه البشرية ورأى أنهم أتوا مختلفين على
غير ما عهد عليه ملك الوحي ، سألهم عن أمرهم ليزول عنه الوجل .

(قال فما خطبكم أيها المرسلون) أى قال لهم : ما الأمر العظيم الذى جئتم لأجله
سوى البشرى ، وكأنه عليه السلام فهم من مجرى حديثهم فى أثناء الحوار أن ليست
هذه البشرية هى المقصودة ، بل لهم شأن آخر لأجله أرسلوا لأنهم كانوا عدداً والبشارة
لاحتجاج إلى مثل هذا العدد ، ومن ثم اكتفى بالواحد فى بشارة زكريا ومريم عليهما
السلام ؛ وأيضا لو كانت البشارة هى المقصودة لابتدعوا بها ، فأجابوه .

(قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) أى قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين من
قوم لوط ، واكتفوا بهذا القدر من الجواب ، لأن إبراهيم يعلم أن الملائكة إذا أرسلوا
إلى الجرمين كان ذلك لهلاكهم وإبادتهم . ومما يرشد أن يفهم هذا الفهم قولهم .
(إلا آل لوط إنا لمنجهم أجمعين) أى إلا أتباع لوط فى الدين فإن نهلكهم
بل ننجيهم من العذاب الذى أمرنا أن نعذب به قوم لوط .

(إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين) أى لانهلك آل لوط وأتباعه إلا امرأته
فقد قضى الله أنها من الباقين مع الكفرة ثم هى مهلكة بعد ذلك معهم ،
وقد أضاف الملائكة هذا التقدير إلى أنفسهم مع أنه لله تعالى ، بيانا لمزيد قربهم من
ربهم واختصاصهم به تعالى كما يقول خاصة الملك : دبرنا كذا وأمرنا بكذا ، والمدبر
الأمير هو الملك .

و بعد أن بشروا إبراهيم عليه السلام بالولد وأخبروه بأنهم مرسلون بعذاب قوم
مجرمين — ذهبوا إلى لوط وآله كما قال سبحانه .

(فلما جاء آل لوط المرسلون . قال إنكم قوم منكرون) أى فلما خرج المرسلون من عند إبراهيم وجاءوا قرية لوط أنكرهم لوط ولم يعرفهم وقال لهم : من أى الأقوام أنتم ، ولأى غرض جئتم ؟ وإنى أخاف أن تمسونى بمكره . ونحو الآية قوله : « وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا نِئْيًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا » وإنما قال هذه المقالة ، لأنه لم يشاهد من المرسلين حين مقاساة الشدائد ومعاناة المكياد من قومه الذين يريدون بهم ما يريدون — إغاثة ولا مساعدة فيما يأتى وما يذرع حين تجشم الأهوال فى تخليصهم فأنكر خذلانهم له وتركهم نصره حين المضايقة التى حلت به بسببهم حتى اضطر إلى أن يقول : « لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ » كما جاء فى سورة هود .

(بل جئناك بما كانوا فيه يمترون) أى قال له الرسل : ما جئناك بما خطر ببالك من المكروه ، بل بما فيه سرورك وهو عذابهم الذى كنت تحذرهم منه وهم يكذبونك فيه قبل مجيئه ، فأنتى لك بعد هذا أن يعتريك مساءة وضيق ذرع ؟ .

وخلاصة ما أرادوا أن يقولوا — ماخذلناك وما خيلنا بينك وبينهم ، بل جئناك بما يدمرهم ويهلكهم من العذاب الذى كنت تتوعدهم به وهم يكذبونك .

واختاروا هذا الأسلوب ولم يقولوا جئناك بعذابهم لإفادة ذلك شيئين : تحقق عذابهم وتحقق صدقه عليه السلام بعد أن كابد منهم كثيرا من الإنكار والتكذيب . (وأنتيناك بالحق وإنا لصادقون) أى وجئناك بالأمر المحقق المتيقن الذى لا مجال فيه للامتراء والشك وهو العذاب الذى كُتِبَ وقدر لقوم لوط ، وإنا لصادقون فيما أخبرناك به .

ثم شرعوا يرتبون له مبادئ النجاة قبل حلول العذاب بقومه فقالوا له : (فأسر بأهلك بقطع من الليل) أى فسر بأهلك ببثية من الليل ، وأهلك على ما روى هم بنتاه .

(واتبع أديبارهم) أى وكن من وراء أهلك الذين تسرى بهم ، وعلى إثرهم لتذود عنهم وتسرع بهم وتراقب أحوالهم حتى لا يتخلف منهم أحد لغرض فيصيبه العذاب .

(ولا يلتفت منكم أحد) فيرى ما ينزل بقومه فيرق قلبه لهم ، وليوطن نفسه على الهجرة ويطيب نفسا بالانتقال إلى المسكن الجديد ، ثم أكد هذا النهى بقوله : (وامضوا حيث تؤمرون) أى وامضوا حيث يأمركم الله غير ملتفتين إلى ما وراءكم كالذى يتحسر على مفارقة وطنه ، فلا يزال يلوى له أخداعه كما قال أبو تمام :

تلقتُ نحو الحى حتى وجدتهى وجعت من الإصغاء ليتاً وأخذت

والخلاصة — إنهم أمروا بمواصلة السير ونهوا عن التواني والتوقف ، ليكون ذلك أقطع للعوائق ، وأحق بالإسراع للوصول إلى المقصد الحقيق وهو بلاد الشام .

(وقضينا إليه ذلك الأمر) أى وأوحينا إليه أن ذلك الأمر مقضى مبدت فيه ؛ ثم فصل ذلك الأمر فقال :

(أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) أى إن آخر قومك وأولهم مجذوذ مستأصل صباح ليلتهم ولا يبقى منهم أحد ، ونحو الآية قوله : « فَقَطَّعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا » .

ثم شرع يذكر ماصدر من القوم حين علموا بقدم الأضياف وما ترتب عليه مما أشير إليه أولاً على سبيل الإجمال فقال :

(وجاء أهل المدينة يستبشرون) أى وجاء أهل سذوم حين سمعوا أن ضيفاً قد ضافوا لوطاً - مستبشرين بنزولهم مدينتهم طمعا في ركوب الفاحشة منهم .

وفي هذا إيماء إلى فظاعة فعلهم ، إذ هم خالفوا ما جرى به العرف وركب في الأذواق السليمة من إكرام الغريب وحسن معاملته ، وقصدوا بهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين .

روى أن امرأة لوط أخبرتهم بأنه نزل بلوط ثلاثة من المرد ما رأينا قط أصبح منهم وجها ولا أحسن شكلا ، فذهبوا إلى دار لوط طالبا لهم مظهرين اغتباطا وسرورا بهم .

ثم أخذ عن مقالة لوط لقومه حين رآهم يقصدون بهم السوء .
(قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحوني) أى قال لوط لقومه : إن هؤلاء الذين جئتمهم تريدون منهم الفاحشة ضيفي ، وحق على الرجل إكرام ضيفه فلا تفضحوني فيهم وأكرموني بترك التعرض لهم بمكره .
ثم زاد النهي توكيدا بقوله :

(واتقوا الله ولا تخزون) أى وخافوا الله في وفى أنفسكم أن يحل بكم عقابه ، ولا تهينوني فيهم بالتعرض لهم بالسوء ، وهذه الجملة أكد في الغرض من سابقها ، إذ التعرض للجار بعد حمايته والذب عنه أجلب للعار ، ومن ثم عبر عن لجاجهم ومجاهرتهم بمخالفته بالخزى وأمرهم بتقوى الله في ذلك .
ثم أبانوا له أنه السبب في الفضيحة وفي هذا الخزى .

(قالوا أو لم نهك عن العالمين ؟) أى قال قومه له : أو لم نهك أن تضيف أحدا من العالمين أو تؤويه في قريتنا ، إذ هم كانوا يتعرضون لكل غريب بالسوء ، وكان لوط ينهأهم عن ذلك على قدر حوله وقوته ويحول بينهم وبين من يعرضون له ، وكانوا قد نهوه عن التعرض لهم في مثل ذلك .

وخلاصة مقالهم — إن ما ذكرت من الخزى والفضيحة أنت مصدره والجالب له ، فلو لا تعرضك لنا ما أصابك ما أصابك .

ولما رآهم متمادين في غيهم ، لا يراعون عن غوايتهم ولا يقلعون عما هم عليه .
(قال إن هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين) أى قال لوط لقومه : تزوجوا النساء ولا تفعلوا ما قد حرم الله عليكم من إتيان الرجال إن كنتم فاعلين ما أمركم به ، منتهين إلى أمرى ، وقد سمى نساء قومه بناته ، لأن رسول الأمة كالأب لهم كما قال تعالى :
« النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » .

(١) ثم أبان له الرسل أنه لا أمل في أرواحهم عن غيهم فقالوا :
 (لعمرك إنهم لنفي سكرتهم يعمهون) أى قالت الملائكة للوط : وحياتك أيها
 الرسول إن قومك لنفي ضلالتهم التي جعلتهم حيارى ولا يعرفون ما أحاط بهم
 من البلاء ، ولا ماذا يصيبهم من العذاب المنتظر ، لما أصابهم من عمى البصيرة فهم
 لا يميزون الخطأ من الصواب ، ولا الحسن من القبيح .
 ثم ذكر عاقبة أمرهم فقال :

(فأخذتهم الصيحة مشرقين) أى فنزل بهم العذاب المنتظر وأخذتهم الصاعقة
 وقت الشروق ، وكان ابتداءؤها من الصبح وانتهاءها حين الشروق ، ومن ثم قال
 أولاً مصبحين وقال هنا مشرقين ، وأخذ الصيحة قهرها لهم وتمكنها منهم ومن ثم
 يقال للأسير أخيد .

ثم بين كيفية أخذها لهم ولقريتهم فقال :
 (فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) أى فجعلنا على المدينة
 وهو ما على وجه الأرض سافلها فأنقلبت عليهم وأمطرنا عليهم أثناء ذلك حجارة من
 طين متحجر ، وقد تقدم ذكر ذلك في سورة هود .

وخلاصة ذلك — إنه تعالى أرسل عليهم ثلاثة ألوان من العذاب .

(١) الصيحة المفكرة الهائلة والصوت المفزع الخفيف .

(٢) إنه قلب عليهم القرية فجعل عاليها سافلها .

(٣) إنه أمطر عليهم حجارة من سجيل .

ثم ذكر أن في هذا القصص عبرة لمن اعتبر فقال :

(إن في ذلك لآيات للمتوسمين) أى إن فيما فعلناه بقوم لوط من الهلاك والعذاب

للدلالات المفكرين الذين يعتبرون بما يحدث في الكون من عظام وعبر ، ويستدلون

بذلك على ما يكون لأهل الكفر والمعاصي من عقاب بئس بما كانوا يكسبون .

أخرج البخارى في التاريخ والترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو نعيم

وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتقوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ تَعَالَى ، ثُمَّ قَرَأَ : إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ » .
والفراسة على نوعين :

- (١) ما يوقعه الله في قلوب الصالحاء فيعلمون بذلك أحوال الناس بالحدس والظن
- (٢) ما يحصل بدلائل التجارب والأخلاق .

وقد صنف الناس في القديم والحديث كتباً في ذلك و بعض العلماء يجعلها دليلاً يحكم به كما فعل إياس بن معاوية (كان قاضياً ذكياً في عهد التابعين) .
ثم لفت أنظار أهل مكة إلى الاعتبار بها لو أرادوا فقال :

(وإنها لبسبيل مقيم) أى وإن هذه المدينة - مدينة سدوم - التى أصابها
عما أصابها من العذاب - لبطريق واضح لا تخفى على السالكين ، فأثارها باقية إلى
اليوم لم تندثر ولم تحف ، فالذين يعمرون عليها من الحجاز إلى الشام يشاهدون آثارها
كما قال فى الآية الأخرى « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصِحِّينَ . وَبِاللَّيْلِ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ » .

ثم إياس من اعتبارهم بها ، إذ هى لا يعتبر بها إلا المؤمنون فقال :
(إن فى ذلك لآية للمؤمنين) أى إن فيما فعلناه بقوم لوط من الهلاك والدمار
وإنجائنا لوطاً وأهله - لدلالة جلية للمؤمنين المصدقين بالله ورسله ، إذ هم يعرفون أن
ذلك إنما كان انتقاماً من الله لأنبيائه من أولئك الجهال الذين عصوا أمر ربهم
وكفروا برسله ولم يراعوا عن غيهم وضلالهم بعد إنذارهم ونصحهم .
أما الذين لا يؤمنون بالله فيجعلون ذلك حوادث كونية لأسباب فلكية وشؤون
أرضية ، جعلت الأرض تنهار لحدوث فراغ فى بعض أجزائها ، كما يشاهد اليوم
فى البلاد ذات البراكين من اختفاء بلاد فى باطن الأرض وابتلاع الأرض لها كما
حدث فى مدينة مسينا بإيطاليا سنة ١٩٠٩ وظهور جزائر فى وسط المحيطات لم تكن
من قبل .

و بعد أن ذكر قصص قوم لوط أتبعه بقصص قوم شعيب عليه السلام فقال :
(وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين) أى وإن أصحاب الأيكة كانوا يجلبثهم
ظالمين كفارا ليس لديهم استعداد للايمان بالله ورسله ، أرسل الله إليهم وإلى أهل
مدين شعيبا فكذبوه .

أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم « إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيبا » .

(فانتقمنا منهم) جزاء مادّسوا به أنفسهم من الكفر والمعاصي ، فسلط على
أصحاب الأيكة الحر سبعة أيام لا يُظِلُّ منه ظلٌّ ، ولا يمنعمهم منه شيء ، ثم أرسل
عليهم سحابة فخلوا تحتها يلتمسون الروح منها ، فبعث عليهم منها نارا فاضطربت
عليهم فأكلتهم ، فذلك عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ، وأما أهل مدين
فقد أخذتهم الصيحة .

ثم ذكر أنه قد كان من حق قريش أن يعتبروا بهما فقال :
(وإنهما لبإمام مبين) أى وإن مدينة أصحاب الأيكة ومدينة قوم لوط
- لبطريق واضح يأتون به فى سفرهم - ويهتدون به فى مسيرهم .
ثم ذكر سبحانه قصة صالح بقوله :

(ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين) أى ولقد كذبت ثمود نبيهم صالحا
عليه السلام ، ومن كذب رسولا من رسل الله فكأنما كذب الجميع ، لاتفاق كلمتهم
على التوحيد والأصول العامة التى لا تختلف باختلاف الأمم والأزمان .
(وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين) أى وأريناهم حججنا الدالة على نبوة
صالح عليه السلام من الناقة وغيرها فأعرضوا عنها ولم يعتبروا بها .

(وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين) من هدمها ونقب اللصوص لها
أو تخريب الأعداء لها لقوة أسرها ويديع إحكامها ، وقد تقدم تفصيل ذلك
فى سورة الأعراف .

ثم ذكر ميقات هلاكهم فقال :

(فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ) أى فَأَخَذْتَهُمُ صَيْحَةَ الْهَلَاكِ حِينَ كَانُوا فِي ضُحَاةِ
اليوم الرابع من اليوم الذى أوعدوا فيه بالعذاب كما جاء فى قوله : « وَقِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا
فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ » .

(فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) أى فما دفع عنهم ما نزل بهم ما كانوا
يكسبون من نجت البيوت وجمع الأموال وكثرة العدد وجمع العدد ، بل خروا
جاثمين هلكى حين حل بهم قضاء الله .

روى البخارى وغيره عن ابن عمر « أن النبى صلى الله عليه وسلم مرّ بالحجر وهو
ذاهب إلى تبوك ففقع رأسه وأسرع براحلته وقال لأصحابه : لا تدخلوا بيوت القوم
المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم » .
وأخرج ابن مردويه عنه قال : « نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عام غزوة
تبوك بالحجر عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من مياه الآبار التى كانت تشرب منها
ثمود وعجنوا منها ونصبوا القدور باللحم ، فأمرهم بإهراق القدور وعلف العجيين للإبل ،
ثم ارتحل عن البئر التى كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين
عذبوا وقال : إني أخشى عليكم أن يصيبكم مثل الذى أصابهم فلا تدخلوا عليهم » .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَإِنَّ
السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ
الْعَلِيمُ (٨٦) .

شرح المفردات

بالحق : أى بالحكمة والمصاحبة ، والساعة يوم القيامة ، والصفح : ترك التثريب
واللوم ، والصفح الجميل : ما خلا من العتب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى القصص السالف إهلاك الأمم المكذبة لرسالتها وعذابها بشتى أنواع العذاب كفاء ما دنسوا به أنفسهم من فظائع الشرك وأنواع المعاصى التى تقوّض دعائم الإخلاص لبارئ القسم وتهد أركان نظم المجتمع ؛ بعبادة الأصنام والأوثان ، وتطفيف للكيل والميزان ، وإتيان الفاحشة التى تسمّز منها النفوس وتنفر منها الأذواق السليمة - أرشد هنا إلى أنهم بعملهم هذا قد تركوا ما قضت به الحكمة والمصلحة من خلق السموات والأرض لعبادة خالقها وطاعته واستقرار نظم المجتمع على وجه صالح صحيح ، ودأبوا على عبادة غيره من الأصنام والأوثان ، فكان من العدل تطهير الأرض منهم دفعا لشروهم وإصلاحا لمن يأتي بعدهم .

الايضاح

(وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) أى وما خلقنا الخلائق مما فى الأرض والسماء وما بينهما إلا بالعدل والإنصاف لا بالظلم والجور ، فإهلاكنا للأمم التى كذبت رسلها وقصصنا عليك قصصها ، وتعجيل النعمة لهم لم يكن ظلما بل كان عدلا وحكمة .

وفى هذا إيماء إلى أن ما يصيب غيرهم من المكذبين لك من العذاب فى الآخرة فيه عدل ومصلحة للبشر .

ثم هدد العصاة وتوعدهم فقال :

(وإن الساعة لآتية) أى إن يوم القيامة لآت لا ريب فيه ، وحينئذ ينتقم الله ممن يستحق العذاب ويحسن إلى من يستحق الإحسان ، فأرض بما يكون لهم من شديد العقاب .

(فأصفح الصفح الجميل) أى فأعرض عنهم إغراضا جميلا واحتمل أذاهم ، وعاملهم معاملة الصفوح الخليم .

وخلاصة ذلك — خالقهم بخلق حسن ، وتأن عليهم ، وأحلم عنهم وأنذرهم
وادعهم إلى ربك قبل أن تقاتلهم .

(إن ربك هو الخلاق العليم) أى إن ربك هو الذى خلقهم وخلق كل شيء
وهو العليم بهم وبما يأتون وما يذرون ، وهو المدبر لأموالهم والمقدر لها على وجه
الحكمة والمصلحة .

وقصارى ذلك — إنه خالقك وخالقهم ، وعليم بأحوالك وأحوالهم ، ولا يخفى
عليه شيء مما جرى بينك وبينهم ، فخلق بك أن تكمل الأمور إليه ، ليحكم بينك
وبينهم ، وقد علم أن الصفيح الجليل أولا أولى بهم إلى أن يحكم السيف بينك وبينهم .

وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ
عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ
لِلذُّمِّ مِنَ الْوُحُوشِ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ
(٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبُّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢)
عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ
(٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ
فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧)
فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ
الْيَقِينُ (٩٩)

شرح المفردات

المثاني : واحدها مثني من الثنية وهو التكرير والإعادة ، ومد عينيه إلى مال
فلان : اشتهاه وتمناه ، والأزواج : واحدها زوج وهو الصنف ، وخفض الجناح :

يراد به التواضع واللين، وأصل ذلك أن الطائر إذا أراد أن يضم فرخه إليه بسط جناحيه له، والجناحان من الإنسان : جانباه ، والنذير : الخوف بعقاب الله من لم يؤمن به ، وعضين : أى أجزاء واحدتها عضه من عضيت الشاة جعلتها أعضاء وأقساماً ، فاصدع بما تؤمر : أى اجهر به من صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً ، يضيق صدرك : أى ينتقبض من الحسرة والحزن ، والساجدين : أى المصلين ، واليقين : الموت وسمى به لأنه أمر متيقن لا يشك فيه .

المعنى الجملى

بعد أن أمر رسوله أن يصبر على أذى قومه وأن يصفح عنهم الصفح الجملى - أردف ذلك بذكر ما أولاه من النعم ، وما أغدق عليه من الإحسان ، ليسهل عليه الصفح ، ويكون فيه سلوة له على احتمال الأذى ، فذكر أنه آتاه السبع المثاني - الفاتحة - والقرآن العظيم الجامع لما فيه هدى البشر وصلاحهم في دنياهم وآخرتهم . وبعد أن ذكر له تظاهر نعمه عليه نهاه عن الرغبة في الدنيا ومد العينين إليها بتنى ما فيها من متاع ، ونهاه عن الحسرة على الكفار إن لم يؤمنوا بالقرآن وبما جاء به وأمره بالتواضع لقراء المسلمين ، وبإندار قومه المشركين بتبليغهم ما أمر به الدين وما نهى عنه ، بالبيان الكافى ، والإعذار الشافى ، وبيان عاقبة أمرهم بتحذيرهم أن يحل بهم ما حل بالمعتسمين - اليهود والنصارى - الذين جعلوا القرآن أقساماً فأمنوا بما وافق التوراة وكفروا بما عدا ذلك ، ويبين لهم أنه سيسألهم ربهم عن جريرة أعمالهم .

ثم أمره أن يعلن ما أمر به من الشرائع ، ولا يلتفت إلى لوم المشركين وتثريبهم له ولا يبال بما سيكون منهم ، فالله تعالى كفاه أمر المستهزئين به وأزال كيدهم ، وإذا ساوره ضيق الصدر من سماع سفههم واستهزائهم كما هو دأب البشر ، فليسبح ربه

وليحمده وليكثر الطاعة له ، فالعبد إذا حزبه أمر نزع إلى طاعة ربه وقد كفل سبحانه أن يكشف عنه ما أمه .

الإيضاح

(ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم) أى ولقد أكرمناك بسبع آيات هي الفاتحة التي تثنى وتكرر في كل صلاة ، وهذا قول عمر وعلى وابن مسعود لما روى عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أم القرآن السبع المثاني التي أعطيتها » أولأنها قسمت قسمين : ثناء ودعاء ، وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين » وأكرمناك أيضا بالقرآن العظيم .

وتخصيص الفاتحة بالذكر من بين القرآن الكريم لمزيد فضلها على نحو ما جاء في قوله تعالى : « وَمَلَأْنَاهُ كُتُبًا وَرُسُلًا وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ » .
وبعد أن عرّف سبحانه رسوله عظيم نعمه عليه فيما يتعلق بالدين - نهاه عن الرغبة في الدنيا فقال :

(لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم) أى لا تمنين أيها الرسول ما جعلنا من زينة الدنيا متاعا للأغنياء من اليهود والنصارى والمشركين ، فإن من وراء ذلك عقابا غليظا .

والخطاب وإن كان موجها إلى النبي صلى الله عليه وسلم - تعليم لأمته كما تقدم مثله كثيرا ، يؤيد هذا ما روى أنه أتت من بصرى وأذرع سبع قوافل لقرينة والنضير في يوم واحد فيها أنواع من البرّ (الأقشة) والطيب والجواهر ، فقال المسامون : لو كانت لنا لتقوينا بها ولأنفقناها في سبيل الله .

وخلاصة ذلك - لقد أوتيت النعمة العظمى التي إذا قيست بها كل النعم كانت حقيرة ، فقد أوتيت سبع آيات هي خير من السبع القوافل .

(ولا تحزن عليهم) إذ لم يؤمنوا ليقوى بمكانهم الإسلام وينتفش بهم المؤمنون ؛ وقد كان صلى الله عليه وسلم يود أن يؤمن به كل من بعث إليه ، ويتمنى لمزيد شفقته عدم إصرار الكفار على كفرهم .

وبعد أن نهاه عن الالتفات إلى الأغنياء من الكفار أمره بالتواضع لفقراء المسلمين فقال :

(واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) أى وألن جانبك وارفق بمن آمن واتبعك ، ولا تحف بهم ولا تغلظ عليهم .

ونحو الآية قوله تعالى : « أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ » وقوله فى صفة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » ثم بين وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال :

(وقل إني أنا النذير المبين) أى أنا النذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تماديهم فى غيرهم كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسولها فانتقم الله منهم .

وفى الصحيحين عن أبى موسى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنما مثلى ومثلى ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قومه فقال يا قوم : إني رأيت الجيش بعثنى وإني أنا النذير العريان ، فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدبوا وانطلقوا على مهالهم فنجوا ، وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به ، ومثل من عصانى وكذب ما جئت به من الحق » .

(كما أنزلنا على المقتسمين . الذين جعلوا القرآن عضين) أى ولقد آتيناك سبعا من المثاني كما آتينا من قبلك من اليهود والنصارى التوراة والإنجيل ، وهم الذين اقتسموا القرآن وجزّوه أجزاء فآمنوا ببعضه الذى وافق كتابيهما ، وكفروا ببعضه

وهو ما خالفهما - أخرج ذلك البخارى وسعيد بن منصور والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس من طرق عدة .

وبعد أن بين وظيفة الرسول ذكر أن الحساب على الأعمال موكول إلى الله لا إليه فقال :

(فوريك لنسألتهم أجمعين . عما كانوا يعملون) أى فلنسألن الكفار جميعا سؤال تأنيب وتوبيخ لهم على ما كانوا يقولون ويفعلون فيما بعثناك به إليهم وفيما دعوناهم إليه من الإقرار بى وتوحيدى والبراءة من الأنداد والأوثان ، روى أبو جعفر عن الزبيع عن أبى العالية فى تفسير الآية قال : يسأل الله العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة عما كانوا يعبدون ، وعماذا أجابوا المرسلين .

وعن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا معاذ إن المرء يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه ، وعن فُتات الطينة بإصبعه ، فلا ألفينك يوم القيامة وأحدٌ غيرك أسعد بما آتاك الله منك » .

وبعد أن ذكر أن وظيفته التبليغ شدد عليه فى الجهر به جهد المستطاع فقال : (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) أى اجهر بإبلاغ ما أمرت به من الشرائع وواجه به المشركين ، ولا تلتفت إلى ما يقولون ولا تبال بهم ولا تخفهم ، فإن الله كافيكهم وحافظك منهم .

ولما كان هذا الصدع شديدا عليه لكثرة ما يلاقيه من أذى المشركين ذكر أنه حارسه وكائنه منهم فلا يخشى بأنهم فقال :

(إنا كفيناك المستهزئين) أى إنا كفيناك شر المستهزئين الذين كانوا يسخرون منك ومن القرآن ، وهم طائفة من المشركين لهم قوة وشوكة كانوا كثيرى السفاهة والأذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين يرونه أو يمر بهم ، أفناهم الله وأبادهم وأزال كيدهم ؛ وقد اختلف فى عدتهم فقوم يقولون هم خمسة : الوليد بن المغيرة والمعاص ابن وائل وعدي بن قيس والأسود بن عبد يغوث والأسود بن عبد المطلب ، وقد ماتوا

جميعا بأهون الأسباب ، فتعلق بثوب الوليد سهيم فتكبر أن يبعده عنه فأصاب عرقا في عقبه فمات ، ومات العاص بشوكة في إخص قدمه ، وأصاب عدى بن قيس مرض في أنفه فمات ، وأصيب الأسود بن عبد يغوث بداء وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات (هذه أعراض حمى التيفوس فيغلب أن يكون قد أصيب بها) وعنى الأسود بن عبد المطلب .

وقوم يقولون هم سبعة من أشراف قريش ومشركيها .

ثم وصف هؤلاء المستهزئين بالشرك فقال :

(الذين يجعلون مع الله إلها آخر) أى هم الذين اتخذوا إلها آخر مع الله يعبدونه . وفى وصفهم بهذا الوصف تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم وتهوين للخطب عليه ، إذ أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء بمقام النبوة ، بل تعدوه إلى الإشراف برهيم المدبر لأموالهم والحسن إليهم .

ثم توعدهم على ما كانوا يصنعون فقال :

(فسوف يعلمون) عاقبة أمرهم حين يحل بهم عذاب ربهم ، يوم تجزى كل نفس بما عملت ، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .

وبعد أن سلاه بكفاية شرهم ودفع مكرهم ذكر تساية أخرى له فقال :

(ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) من كلمات الشرك والاستهزاء كما هو دأب الطبيعة البشرية حين ينوب الإنسان ما يؤله ويحزنه ، أن يرى في نفسه انقباضا وضيقا في الصدر وأسى وحسرة على ما حل به .

ثم أمره سبحانه بأن يفزع لكشف ما نابه من ضيق الصدر إلى تسريح الله وحده فقال :

(فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) أى إذا نزل بك الضيق ووجهت نفسك فافزع إلى ربك ، ونزهة عما يقولون ، حامدا له

على توفيقك للحق ، وهدايتك إلى سبيل الرشاد ، وصلّ آتاء الليل وأطراف النهار ، فإن في مناجاة ربك ما يقربك إلى حضرة القدس ، ويسمو بنفسك إلى الملا الأعلى كما ورد في الحديث « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، ودم على ما أنت عليه طالبا المزيد من فضله ، حتى يأتيك الموت ، فهناك الجزاء بلا عمل ، وهنا العمل ولا جزاء .

وقصارى ذلك — إنه تعالى أرشده إلى كشف ما يحده في نفسه من النعم بفعل الطاعات ، والإكثار من العبادات وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر واشتد عليه خطب ، فزع إلى الصلاة ، روى أحمد عن ابن عمار أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تعالى يا ابن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره » .

وقد حكى الله عن أهل النار أنهم يقولون : « لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ . وَكُنَّا نَحْوُكُمْ مَعَ الْخَائِضِينَ . وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ . حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ » .

وفي هذا دلالة على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على المرء ما دام ثابت العقل ، روى البخارى عن عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صل قائما ، فإن لم تستطع فقاعدا ، فإن لم تستطع فعلى جنب » .

اللهم وقفنا لطاعتك ، واهدنا لعبادتك ، واجعلنا من المتقين الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

خلاصة ما اشتملت عليه السورة الكريمة

من الحكم والأحكام

- (١) وصف القرآن الكريم .
- (٢) الإعراض عن المشركين حتى يحل بهم ريب المنون .
- (٣) استهزاء المشركين وإنكارهم لنبوته محمد صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم لما يروونه من الآيات .
- (٤) إقامة الأدلة على وجود الله بما يروونه من الآيات في خلق السموات والأرض وفي خلق الإنسان .
- (٥) عصيان إبليس أمر ربه في السجود لآدم وذكر الحوار بينه وبين ربه ، وطالبه الإنظار إلى يوم الدين .
- (٦) بيان حال أهل الجنة وأهل النار يوم القيامة .
- (٧) قصص بعض الأنبياء وذكر ما أهلك الله به كل أمة من الأمم المكذبة لرسالها .
- (٨) بيان أن الحكمة في خلق السموات والأرض هي عبادة الله وحده وإقامة العدل والنظام في المجتمع .
- (٩) ذكر ما أنعم الله به على نبيه من السبع المثاني والقرآن العظيم .
- (١٠) نهى نبيه والمؤمنين عن تمنى زخرف الدنيا وزينتها .
- (١١) أمره صلى الله عليه وسلم بخفض الجناح والرقق بمن اتبعه من المؤمنين .
- (١٢) التذكير بنعمة الله عليه بإهلاك أعدائه المستهزين الذين جعلوا القرآن عصيين .
- (١٣) الأمر بالدعوة للدين جهرا والصدع بها وعدم المبالاة بالمشركين .
- (١٤) أمره صلى الله عليه وسلم بالتسبيح والعبادة إذا ضاق صدره باستهزاء المشركين والطعن فيه وفي كتابه الكريم .

سورة النحل

هذه السورة مكية سوى ثلاث آيات من آخرها فإنهن نزلن بين مكة والمدينة
منصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحد .
وعدد آياتها ثمان وعشرون ومائة .

ووجه ارتباطها بما قبلها أنه لما قال في السورة السالفة : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ » كان ذلك تنبيها إلى حشرهم يوم القيامة وسؤالهم عما فعلوه في الدنيا ،
ف قيل : « أَتَى أَمْرُ اللَّهِ » وأيضا فإن قوله في آخرها : « وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ » شديد الالتئام بقوله أتى أمر الله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يَنْزِلُ
الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ
لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) .

شرح المفردات

أتى أمر الله : أى قرب ودنا ، ويقال فى مجرى العادة لما يجب وقوعه قد أتى
وقد وقع ، فيقال لمن طلب مساعدة حان مجيئها ، جاءك الغوث ، وأمر الله عذابه
للكافرين ، والروح : الوحى وهو قائم فى الدين مقام الروح من الجسد ، فهو يحى
القلوب التى أماتها الجمل ، من أمره : أى بأمره ومن أجله ، أنذروا : أى خوفوا ،
فاتقون : أى خافوا عقوبتى لخالفه أمرى وعبادة غيرى .

المعنى الجملى

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخوف المشركين تارة بعذاب الدنيا من قتل وأسر كما حدث يوم بدر ، وتارة بعذاب الآخرة ، ثم إنهم لما لم يشاهدوا شيئاً من ذلك احتجوا بذلك على تكذيبه وطلبوا منه الإتيان بذلك العذاب روى أنه لما نزل قوله تعالى : « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ » قال الكافرون حين خلوا إلى شياطينهم إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن ، فلما تأخرت قالوا ما نرى شيئاً مما نخوفنا به فنزل قوله تعالى : « اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ » فأشفقوا وانتظروا ، فلما امتدت الأيام قالوا يا محمد ما نرى شيئاً مما نخوفنا به فنزل قوله : (أتى أمر الله) فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رءوسهم فنزل قوله : (فلا تستعجلوه) .

الإيضاح

(أتى أمر الله فلا تستعجلوه) أى قرب عذاب المشركين وهلاكهم ، أما إتيانه بالفعل وتحققه فنوط بحكم الله النافذ وقضائه الغالب على كل شيء ، فهو يأتى فى الحين الذى قدره وقضاه .

ونظم سبحانه المتوقع فى صورة الحقيق إيذاناً بأنه واجب الوقوع ، والشئ إذا كان بهذه المثابة يسوغ فى عرف التخاطب أن يعد واقعا ، ومعنى قوله فلا تستعجلوه لا تطلبوا حصوله قبل حضور الوقت المقدر فى علمه تعالى .

وفى هذا تهديد من الله لأهل الكفر به وبرسوله وإعلام منه لهم بقرب عذابهم وهلاكهم الذى لا بد منه .

(سبحانه وتعالى عما يشركون) أى تبرأ الله تعالى عن الشريك والشفيع الذى يدفع الضر عنكم ، وفى هذا رد لمقالم حين قالوا : لئن حكم الله علينا بإنزال العذاب فى الدنيا أو فى الآخرة - لتشفعن لنا هذه الأصنام التى نعبدوها من دونه .

وخلاصة هذا — إن تلك الجمادات الخسيسة التي جعلتموها شركاء لله وعبدتموها هي أحقر الموجودات وأضعف المخلوقات ، فكيف تجعلونها شريكة لله في التدبير والشفاعة في الأرض والسماوات .

ثم أجاب عن شبهة لهم إذ قالوا : هب الله قضى على بعض عباده بالشر وعلى آخرين بالخير ، فمن يعرف هذه الأسرار التي لا يعلمها إلا هو ؟ فقال :
(ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) أى ينزل سبحانه ملائكته بالوحي إلى من يريد من عباده المصطفين الأخيار ، أن أنذروا عبادى أن إله الخلق واحد لا إله إلا هو ، وأنه لا تنبغى الألوهية إلا له ، ولا يصلح أن يعبد شيء سواه ، فاحذروه وأخلصوا له العبادة ، فإن فى ذلك نجاتكم من الهلكة ، وقد جاء ذكر الروح بمعنى الوحي فى قوله : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ » وفى قوله : « يُبَلِّغُنَا رُوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » .

والمراد بقوله من أمره — بيان أن ذلك التنزيل والنزول لا يكونان إلا بأمره تعالى كما قال حكاية عن الملائكة : « وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ » وقال : لَا يَسْمِعُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ » وقال : « يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » وقال : « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » فى كل ذلك دليل على أن الملائكة لا يقدمون على عمل إلا بأمره تعالى وإذنه .

وفى الآية إيماء إلى أن الوحي من الله إلى أنبيائه لا يكون إلا بواسطة الملائكة ، ويؤيد ذلك قوله : « وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ » فقد بدأ بذكر الملائكة لأنهم هم الذين يتلقون الوحي من الله بلا وساطة ، وذلك الوحي هو الكتب ، وهم يوصلون هذا الوحي إلى الأنبياء — لاجرم جاء الترتيب على هذا الوضع .

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ
 الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٤) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا
 دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ
 تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا لِيَسْئَلُ
 الْأَنْفُسَ ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ
 لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا
 جَارٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ
 مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ
 وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
 لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
 وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢)
 وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ
 يَذْكُرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا
 وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ
 فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ
 بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ
 يَهْتَدُونَ (١٦) .

شرح المفردات

أصل النطفة : الماء الصافي ويراد بها هنا مادة التلقيح ، والخصيم : بمعنى الخصم
 كالخليط بمعنى الخالط ، والعشير : بمعنى المعاشر والمراد به المنطق المجادل عن نفسه
 المنازع للخصوم ، والمبين : المظهر للحجة ، والدفع : ما يستدفع به من الأكسية ،
 والمنافع : هي درّها وركوبها والحرث بها وحملها للماء ونحو ذلك ، جمال : أى زينة
 فى أعين الناس وعظمة لديهم ، تريحون : أى تردونها بالعشى من المرعى إلى مرايحها
 يقال أراح الماشية إذا ردها إلى المراح ، تسرحون : أى تخرجونها غدوة من حظائرهما
 وميبتها إلى مسارحها ومراعيها ، والأثقال : واحدها ثقل وهو متاع المسافر ، وشق
 الأنفس : مشقتها وتعبها ، القصد : الاستقامة ، يقال سبيل قصد وقاصد إذا أدرك إلى
 مطلوبك ، وجائر : أى مائل عن المحجة منحرف عن الحق ، وتسيمون : أى ترعون
 يقال أسام الماشية وسومها جعلها ترعى ، وذراً : خلق ، ألوانه : أى أصنافه ، مواخر
 واحدها ماخرة : أى جارية من نحر الماء الأرض أى شقها ، والميد : الحركة والاضطراب
 يمينا وشمالا ، وعلامات : أى معالم يستدل بها السابلة من نحو جبل ومنهل
 ورأحة تراب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه منزّه عن الشريك والولد وأنه لا إله إلا هو وأمر بتقواه
 وإخلاص العبادة له - ذكر هنا أدلة التوحيد واتصاف ذاته الكريمة بصفات الجلال
 والإكرام بأسلوب بديع جمع فيه بين دلالة المصنوع على الصانع والنعمة على المنعم ،
 ونبه بذلك إلى أن كل واحد من هذا كافى فى صرف المشركين عما هم عليه من
 الشرك ، وكلما بصرهم طائفة مما يرون ويشاهدون بكتهم على ما يقولون ويفعلون وبين
 لهم كفرانهم نعمتى الرعاية والهداية ، فاحتج على وجوده بخلق الأجرام الفلكية ،

ثم ثنى بذكر أحوال الإنسان ، ثم ثلث بذكر أحوال الحيوان ، ثم رابع بذكر أحوال النبات ، ثم اختتم القول بذكر أحوال العناصر الأربعة .

الإيضاح

(خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون) أى خلق سبحانه العالم العلوى وهو السموات والعالم السفلى وهو الأرض بما حوت - بالحق أى على نهج تقتضيه الحكمة ولم يخلقهما عبثاً ، منفرداً بخلقهما لم يشركه فى إنشائهما وإحداثيهما شريك ، ولم يعنه على ذلك معين ، تعالى الله عن ذلك ، إذ ليس فى قدرة أحد سواه أن ينشئ السموات والأرض فلا تليق العبادة إلا له .

وبعد أن ذكر أدلة الأكوان ذكر خلق الإنسان فقال :

(خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين) أى خلق الإنسان من نطفة أى من ماء مهين - خلقاً عجيباً فى أطوار مختلفة ، ثم أخرجه إلى ضياء الدنيا بعد ما تم خلقه ونفخ فيه الروح فعذاه ونمائه ورزقه القوت حتى إذا استقل ودرج نسي الذى خلقه خلقاً سواها من ماء مهين ، بل خاصمه فقال : « مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ » وعبد ما لا يضر ولا ينفع : « وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً » .

(والأنعام خلقها لكم فيها دفر ومنافع ومنها تأكلون) امتن سبحانه على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهى الإبل والبقر والغنم كما تقدم تفصيل ذلك فى سورة الأنعام إذ عدّها ثمانية أزواج ، وبما جعل لهم فيها من المنافع من الأصواف والأوبار والأشعار ، لباساً وفراشاً ، ومن الألبان شرباً ، ومن الأولاد أكلاً .

(ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون) أى ولكم فى هذه الأنعام زينة حين تردونها بالعشى من مسارحها إلى منازلها التى تأوى إليها ، وحين إخراجها من مراحها إلى مسارحها وخصص هذين الوقتين بالذكر ، لأن الألفية تتزين بها

ويتجاوب ثقاؤها ورغاؤها حين الذهاب والإياب فيعظم أربابها في أعين الناظرين إليها ، وقدم الإراحة على السرح مع تأخرها في الوجود ، لأن الجمال فيها أظهر ، وجلب السرور فيها أكمل ، ففيها حضور بعد غيبة وإقبال بعد إدبار على أحسن ما يكون ، إذ تكون ملاءى البطون حافلة الضروع .

(وتحمل أتعالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس) أى وهى أيضا تحمل أمتعكم وأجمالكم من بلد إلى آخر لم تكونوا بالغيه بدونها إلا بكلفة ومشقة وجهد شديد .

ونحو الآية قوله : « وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ » وقوله : « اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لَتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ » (إن ربكم لرؤوف رحيم) ومن ثم أسبغ عليكم نعمه الجليلة ، ويسر لكم الأمور الشاقة العسيرة ، ومن رأفته ورحمته بكم أن خلق لكم الأنعام لمنافع ومصالحكم كما قال : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ . وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ؟ » .

(والخيل والبغال والحمير لكم ركوبها وزينة) أى وخلق لكم الخيل والبغال والحمير أيضا لتركبوها ، وجعلها لكم زينة تتزينون بها - إلى مالكم فيها من منافع أخرى . (ويخلق ما لا تعلمون) غير هذه الدواب مما يهدى إليه العلم وتستنبطه العقول كالقطر البرية والبحرية والطائرات التى تحمل أمتعكم وتركبوها من بلد إلى آخر ومن قطر إلى قطر ، والمطاود الهوائية التى تسير فى الجو والغواصات التى تجرى تحت الماء إلى نحو أولئك مما تعجبون منه ويقوم مقام الخيل والبغال والحمير فى الركوب والزينة .

وبعد أن شرح سبحانه دلائل وحدانيته أرشد إلى أنه كفيل ببيان الطريق السوي لمن أرادَه فقال :

(وعلى الله قصد السبيل) أى وعلى الله بيان الطريق المستقيم الموصل من سلكه إلى الحق بنصب الأدلة وإرسال الرسل عليهم السلام وإنزال الكتب لدعوة الناس إليه ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنا ما يضل عليها .

ونحو الآية قوله : « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » وقوله : « هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ » .

(ومنها جائز) أى ومن السبل سبيل جائز عن الاستقامة معوج زائغ عن الحق ؛ فالسبيل المقاصد هو الإسلام ، والجائز منها هو غيره من الأديان الأخرى سماوية كانت أو أرضية .

وخلاصة هذا — إن ثمة طرقا تسلك للوصول إلى الله ، وليس يصل إليه منها إلا الطريق الحق وهو الطريق التى شرعها ورضيها وأمر بها وهى طريق الإسلام له والإخبارات إليه وحده كما أرشد إلى ذلك بقوله : « فَأَتِمُّوا وَجْهَكُمْ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . مُنْذِرِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ » وما عداها فهو جائز ، وعلى الله بيان ذلك ليَهْتدى إليه الناس ويبتعدوا عن سواه .
ثم أخبر سبحانه بأن الهداية والضلال بقدرته ومشيئته فقال .

(ولو شاء لهداكم أجمعين) أى ولو شاء سبحانه لجمعكم كالنمل والذحل فى حياتكم الاجتماعية أو جعلكم كالملائكة مفلطورين على العبادة وتقوى الله ، فلا تنجس نفوسكم إلى المعصية ولا تسعى إلى الشر ، ولكنه شاء أن يجعلكم تعملون أعمالكم باختياركم وتسعون إليها بعد بحثها وخصها من سائر وجوها ثم ترجحون منها ما تميل إليه نفوسكم وترون فيه الفائدة لكم كما قال عز من قائل : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ

طريق الخير والشر - إِمَّا شَا كِرًا وَ إِمَّا كَافُورًا » وقد تقدم إيضاح هذا عند قوله : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا » وعند قوله : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » .

وبعد أن ذكر نعمته عليهم بتسخير الدواب والأنعام - شرع يذكر نعمته عليهم في إنزال المطر فقال :

(هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسمون) أى إن الذى خلق لكم الأنعام والخليل وسائر البهائم لمنافعكم ومصالحكم - هو الذى أنزل المطر من السماء عذبا زلالا تشربون منه وتسقون أشجاركم ونباتكم التى تسمون فيها أنعامكم وفيها ترمى .

(ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات) أى ينبت لكم بالماء الذى أنزله من السماء زرعكم وزيتونكم ونخيلكم وأعنابكم ومن كل الثمرات غير ذلك - أرزاقا لكم وأقواتا نعمة منه عليكم وحجة على من كفر به . (إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) أى إن فيما ذكر من إنزال الماء وغيره لأدلة وحججاً على أنه لا إله إلا هو لقوم يعتبرون مواعظ الله ويتفكرون فيها حتى تطمئن قلوبهم بها وينبجج نور الإيمان فيها ، فيضئ أفئدتهم ويزكى نفوسهم ، فمن فكر فى أن الحبة والنواة تقع فى الأرض وتصل إليها نداوة منها تنفذ فيها فينشق أسفلها فيخرج منه عروق تنبسط فى الأرض ويخرج منها ساق ينمو وتخرج فيه الأوراق والأزهار والحبوب والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الأشكال والألوان والخواص والطباع - علم أن من هذه آثاره لا يمكن أن يشبهه شيء فى صفات كماله فضلا عن أن يشاركه فى أخص صفاته وهى الألوهية واستحقاق العبادة .

ولله در القائل :

تأمل في رياض الورد وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجن شاخصات على أهدابها ذهب سبيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك
(وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) أى ومن
نعمه تعالى عليكم مضافة إلى النعم التى سلف ذكرها - أن سخر لكم الليل والنهار
يتعاقبان خِلْفَةً لِمَنَامِكُمْ واستراحتكم وتصرفكم فى معاشكم وسعيكم فى مصالحكم ،
وسخر لكم الشمس والقمر يدأبان فى سيرهما وإنارتهمأ أصالة وخلافة ، وأدائهما مانيط
بهما من تربية الأشجار والزرع وإنضاج الثمرات وتلوينها إلى نحو ذلك من الآثار
والمنافع التى ربطها سبحانه بوجودهما ، وبهما يعرف عدد السنين والشهور ،
وفى ذلك صلاح معاشكم ، وسخر لكم النجوم بأمره تجرى فى أفلاكها بحركة مقدرة
لا تزيد ولا تنقص ، اتهمدوا بها فى ظلمات البر والبحر .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) أى إن فى ذلك التسخير لدلالات وانصحات
لقوم يعقلون حجاج الله ويفهمون ما نبههم إليه بها .

وعبر هنا بالعقل وفى خاتمة الآية السالفة بالتفكير ، من قبل أن الآثار العلوية
متعددة ، ودلالة ما فيها من عظيم القدرة والعلم والحكمة على الوجدانية ظاهرة لا تحتاج
إلا إلى العقل من غير تفكير ولا تأمل ، بل تدرك بالبديهة ، بخلاف الآثار السفلية
من الزرع والنخيل والأعشاب فهى تحتاج فى دلالتها على وجود الصانع إلى فكر
وتدبر ونظر شديد .

(وما ذراً لكم فى الأرض مختلفا ألوانه) أى وما خلق لكم فى الأرض من
عجائب الأمور ومختلف الأشياء من معادن ونبات وحيوان على اختلاف أجناسها
وأشكالها ومنافعها وخواصها .

(إن في ذلك لآية لقوم يذكرون) آلاء الله ونعمه فيشكرونها على ما أنعم ويحببتون إليه على ما تفضل به وأحسن .

وبعد أن ذكر أنواع النعم في البر شرع يفصل نعمه في البحر فقال :

(وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا) أى وهو الذي سخر لكم البحر - الماء المالح والمذب - لتأكلوا منه سمكا تصطادونه .

وفي وصفه بالطراوة تنبيه إلى أنه ينبغي التسارعة إلى أكله ، لأنه يسرع إليه الفساد والتغير ، وقد أثبت الطب أن تناوله بعد ذهاب طراوته من أضر الأشياء ، فسيبجان الخبير بخلقه ومعرفة ما يضر استعماله وما ينفع ، وفيه أيضا إيماء إلى كمال قدرته تعالى في خلقه المذب الطرى في الماء المر الذي لا يشرب .

وقد كره العلماء أكل الطافي منه على وجه الماء وهو الذي يموت حشف أنفه في الماء فيطفو على وجهه لحديث جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم : « مانضب عنه الماء فكلوا ، وما لفظه الله فكلوا ، وما طفا فلا تأكلوا » فالمراد من ميتة البحر في الحديث « هو الظهور مأوه الحل ميتته » ما لفظه لا مامات فيه من غير آفة .

(وتستخرجوا منه حلية تلبسونها) كاللؤلؤ الخلق في صدفه العائش في البحار ولاسيا المحيط الهندي ، والمرجان الذي ينبت في قيعانها ، وتوجد حقول من المرجان في البحر الأبيض المتوسط أمام تونس والجزائر ، متى تم بيعها حصدها الدولة الفرنسية وباعتها للمسلمين وهم لا يعلمون شيئا من أمرها ، وكأنهم لم يقرءوا القرآن وكأنهم لم يخلقوا في هذه الأرض ، وكأنهم يقولون : ربنا لا نستخرج ، بل نشترى من المستخرجين من الأرض ، وكأنهم ليسوا مخاطبين بالاستخراج المباح ، وبذا حرموا على أنفسهم ما أباحه الله لهم ، وقد بلغ ما استخرج من المرجان سنة ١٨٨٦م ٧٧٨ ألف كيلو جرام ثمنها خمسة ملايين وسبعائة وخمسون ألف فرنك .

(وترى الفلك مواخر فيه) أى وترى السفن جواري فيه تشقه بحيزوها ومقدمها مقبلة مدبرة من قطر إلى قطر ومن بلد إلى آخر ، ومن إقليم إلى إقليم لجلب ما هناك إلى هنا ، وما هنا إلى هناك ومن ثم قال :

(ولتبتغوا من فضله) أى ولتطلبوا فضل الله ورزقه بركوبه للتجارة .
 (ولعلكم تشكرون) أى ولتشكروا ربكم على ما أنعم به عليكم ، إذ جعل ركوب
 البحر مع كونه مظنة للهلاك سببا للانتفاع وحصول المعاش مع عدم الحاجة إلى الحل
 والترحال والاستراحة والسكون ، والله در القائل :

وإنافى الدنيا كركب سفينة نظن وقوفا والزمان بنا يسرى
 (وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم) أى وألقى فى الأرض جبالا ثابتة
 لتقر ولا تضطرب بما عليها من الحيوان ، فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك كما قال :
 « وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا » وما الأرض إلا كسفينة على وجه الماء ، فإذا لم يكن فيها أجرام
 ثقيلة تضطرب وتميل من جانب إلى جانب بأدنى الأسباب ، وإذا وضعت فيها أجرام
 ثقيلة تستقر على حال واحدة ، فكذا الأرض لو لم يكن عليها هذه الجبال لاضطربت
 وقد تقدم إيضاح هذا وسيأتى بعد .

(وأنهارا) أى وجعل فيها أنهارا تجري من مكان إلى آخر رزقا للعباد ، فهى
 تنبع فى مواضع وهى رزق لأهل مواضع أخرى ، فهى تقطع البقاع والبرارى وتخترق
 الجبال والآكام حتى تصل إلى البلاد التى سخر لأهلها أن تنتفع بها كما يشاهد فى نهر
 النيل ، إذ ينبع من أواسط أفريقية ويمر بجبال ووهاد فى السودان ويستفيد منه الفائدة
 الكبرى أهل مصر دون سواها ، وكل ذلك بتقدير اللطيف الخبير .

(وسبلا) أى وكذلك جعل فيها سبلا أى طرقا نسلك فيها من بلاد إلى أخرى ،
 وقد تحدث ثلثة فى الجبل لتكون ممرا وطريقا كما قال تعالى فى وصف الجبال :
 « وَجَعَلْنَاهَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا » الآية .

(لعلكم تهتدون) بتلك السبل إلى ما تريدون فلا تضلون .
 (وعلامات) أى وجعل فيها علامات أى دلائل يهتدى بها السارى من جبال
 كبار وآكام صغار ونحو ذلك حتى إذا ضل الطريق كانت عوناله وهدته إلى السبيل
 السوى فى البر أو فى البحر .

(و بالنجم هم يهتدون) بالليل في البرارى أو في البحار ، وفي الآية إيماء إلى أن مراعاة النجوم أصل في معرفة الأوقات والطرق والقبلة ، ويحسن أن نتعلم من علم الفلك ما يفيد تلك المعرفة .

قال قتادة : إنما خلق الله النجوم لثلاثة أشياء : لتكون زينة للسماء ، ومعالم للطرق ، ورجوما للشياطين ، فمن قال غير ذلك فقد تكلف ما لا علم له به .

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ قَالِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣) .

شرح المفردات

المراد بمن يخلق : الله سبحانه وتعالى ، ومن لا يخلق : الملائكة وعيسى والأصنام ، وما يشعرون : أى لا يعلمون ، وأَيَّانَ : كفى كلمتان تدلان على الزمن ، لا جرم : أى حقا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الدلائل على وجود الإله القادر الحكيم على أحسن ترتيب وأكمل نظام ، وكان في ذلك تفصيل وإيضاح لأنواع النعم ووجوه الإحسان - قفى على ذلك بتبكييت الكفار وإبطال لشركهم وعبادتهم غير الله من الأصنام والأوثان ،

لما يلزم ذلك من المشابهة بينه تعالى وبينها ، ثم أردف ذلك ببيان أن لهذا الخالق نعماً لا تحصى على عباده ، وأنهم مهما بالغوا في الشكر واجتهدوا في العبادة فليسوا ببالغين شيئاً مما يجب عليهم نحوه ، ولكنه يستر عليهم ما فرط من كفرانها ، ويرحمهم بفيض النعم عليهم مع عدم استحقاقهم لها ، ثم أعقب هذا بذكر خواص الألوهية وهي علم السر والنجوى والخلق وهذه الأصنام ليس لها شيء من ذلك فهي مخلوقة لاختلاقه ولا شعور لها بحشر ولا نشر ، ومن هذا كله يعلم أن الإله واحد لا شريك له ، ثم ذكر الأسباب الداعية إلى الإشراف وهي تحجر القلوب وإنكار التوحيد فهي لا ترغب في الثواب ولا ترهب العقاب وتستكبر عن عبادة الواحد الديان - لاجرم بقيت مصرة على ما كانت عليه من الجهل والضلال .

الإيضاح

(أفن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون ؟) أى أفن يخلق هذه الخلائق العجيبة التى عددها عليكم وينعم هذه النعم العظيمة - كمن لا يخلق شيئاً ولا ينعم نعماً صغيرة ولا كبيرة ، أفلا تذكرون هذه النعم وهذا السلطان العظيم والقدرة على ما شاء من الحكمة ، وعجز أوثانكم وضعفها ومهاتها ، وأنها لا تجلب إلى نفسها نفعاً ولا تدفع ضراً ، فتعرفوا بذلك خطأ ما أنتم عليه من عبادتها وإقراركم لها بالألوهية .

وخلاصة هذا - الإنكار عليهم ورميهم بالجهل وسوء التقدير وقلة الشكر لمن أنعم عليهم بما لا يحصى من النعم ، مع وضوح ذلك وقلة احتياجه إلى تدبر وتفكير وإطالة نظر ، بل يكفي فيه تنبيه العقل ليعلم أن العبادة لا تليق إلا بالمنعم بكل هذه النعم ، أما هذه الأصنام التى لا تفهم لها ولا قدرة ولا اختيار فلا تنبغى عبادتها ولا الاشتغال بطاعتها .

قال قتادة فى الآية : الله هو الخالق الرازق ، لا هذه الأوثان التى تعبد من دون الله لا تخلق شيئاً ولا تملك لأهلها ضراً ولا نفعاً .

و بعد أن نبههم سبحانه إلى عظمته ذكرهم بنعمه عليهم وإحسانه إليهم فقال :
 (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) أى وإن تعدوا نعم الله لا تضبطوا عددها
 فضلا عن أن تستطيعوا القيام بشكرها ، فإن العبد مهما أتعب نفسه فى طاعته ،
 وبالغ فى شكران نعمه ، فإنه يكون مقصرا ، فنعم الله كثيرة ، وعقل الخلق قاصر عن
 الإحاطة بها ، ومن ثم فهو يتجاوز عن ذلك التقصير ، وإلى ذلك أشار بقوله :
 (إن الله لغفور) فيستر عليكم تقصيركم فى القيام بشكرها .

(رحيمة) بكم فيفيض عليكم نعمه مع استحقاقكم للقطع والحرمان بما تأتون
 وما تذكرون من أصناف الكفر والمعصيان ، ومن أفضع ذلك وأعظمه جرما المساواة
 بين الخالق والمخلوق .

قال بعض الحكماء : إن أى جزء من البدن إذا اعتراه الألم نغص على الإنسان
 النعم ، وتمنى أن ينفق الدنيا لو كانت فى ملكه حتى يزول عنه ذلك الألم ، وهو سبحانه
 يدبر جسم الإنسان على الوجه للملائمة له ، مع أنه لا علم له بوجود ذلك ، فكيف يطبق
 محصر نعمه عليه أو يقدر على إحصائها ، أو يتمكن من شكر أذناها ؟ .

ربنا هذه نواصينا بيدك ، خاضعة لعظم نعمك ، معترفة بالعجز عن تأدية الشكر
 لشيء منها ، لانحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، ولا نطبق التعبير
 بالشكر لك ، فتجاوز عنا ، واغفر لنا ، وأسبل ذيول سترك على عوراتنا ، فإنك إلا
 تفعل نهلك ، لتقصيرنا فى شكر نعمك ، فكيف بما فرط منا من التساهل فى الائتمار
 بأوامرك ، والاتهاء عن مناهيك :

العفو يرجى من بنى آدم فكيف لا يرجى من الرب اه
 و بعد أن أبطل عبادة الأصنام ، من قبل أنها لاقدرة لها على الخلق والإنعام ،
 أبطل عبادتها بوجه آخر وهو أن الإله يجب أن يكون علما بالسر والعلانية ، وهذه
 الأصنام جامد لا معرفة لها بشيء فكيف تجمل عبادتها ؟ وإلى ذلك أشار بقوله :

(والله يعلم ما تسرون وما تعلنون) أى والله يعلم ما تسرونه فى ضمائركم وتخفونه
 عن غيركم وما تبدونه بالسننكم وجوارحكم وأفعالكم ، وهو محص ذلك كله عليكم

فيجازيكم به يوم القيامة ، فيجازي الحسن بإحسانه ، والمسيء منكم بإساءته ، وهو سائلكم عما كان منكم من الشكر في الدنيا على النعم التي أنعمها عليكم فيها ، ما أحصيت منها وما لم تحصوا .

ثم وصف سبحانه هذه الأصنام بصفات تجعلها بمعزل عن استحقاق العبادة تنبيها إلى كمال حماقة المشركين وأنهم لا يفهمون ذلك إلا بالتصريح دون التلميح فقال :

(١) (والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون) أى والأوثان التى تعبدونها من دون الله لا تخلق شيئا بل هى مخلوقة ، فكيف يكون إلهما ما يكون مصنوعا ، وغيره هو الذى دبر وجوده ؛ ونحو الآية قوله : « أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ؟ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ » .

(٢) (أموات غير أحياء) أى هى أموات ولا تعترىها الحياة بوجه ، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ، وفائدة قوله غير أحياء بيان أن بعض ما لا حياة فيه قد تدركه الحياة بعد كالنطفة التى ينشئها الله تعالى حيوانا ، وأجساد الحيوان التى تبعث بعد موتها ، أما هذه الأصنام من الحجارة والأشجار فلا يعقب موتها حياة وذلك أتم فى نقصها .

(٣) (وما يشعرون أيا ن يبعثون) أى وما تدرى هذه الأصنام التى تعبدونها من دون الله متى تبعث عبيتها .

ولا يخفى ما فى ذلك من التهم بها ، لأن شعور الجاد بالأمور الظاهرة بديهى الاستحالة لدى كل أحد ، فكيف بما لا يعلمه إلا العليم الخبير ؛ كما أن فيه تهكما بالمشركين من قيل أن آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم ليجازوهم على عبادتهم بإيهم ، وفيه تنبيه إلى أن البعث من لوازم التكليف لأنه جزاء على العمل من خير أو شر ، وأن معرفة وقته لا بد منه فى الألوهية .

ولما أبطال طريق عبدة الأصنام وبين فساد مذهبهم صرح بالمدعى ونخلص النتيجة بعد إفاة الحجة فقال :

(إلهكم إله واحد) أى معبودكم الذى يستحق العبادة وإفراد الطاعة له دون

سائر الأشياء - معبود واحد لاتصلح العبادة إلا له ، فأفردوا له الطاعة وأخلصوا له العبادة ولا تجعلوا معه شريكا سواه .

ثم ذكر الأسباب التي لأجلها أضر الكفار على الشرك وإنكار التوحيد فقال :
(فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون) أى والذين لا يصدقون بوعد الله ولا وعيده ، ولا يقرون بالمعاد إليه بعد المات - قلوبهم جاحدة لما قصصناه عليكم من قدرة الله وعظمته وجزيل نعمه عليهم ، وأن العبادة لاتصلح إلا له والألوهية ليست لشيء سواه ، فلا يؤثر فيها وعظ ، ولا ينفع فيها تكبير ؛ وهم مستكبرون عن قبول الحق ، متعظمون عن الإذعان للصواب ، مستمرون على الجحد تقليدا لما مضى عليه آبائهم من الشرك به كما حكى سبحانه عنهم قولهم : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ » وقولهم : « أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ؟ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ » وقال : « وَإِذَا دُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَإِذَا دُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَاهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ » .

ثم ذكر وعيدهم على أعمالهم فقال :

(لاجرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) أى حقا إن الله يعلم ما يسر هؤلاء المشركون من إنكارهم لما قصصته عليك واستكبارهم على الله ، ويعلم ما يعلنون من كفرهم به وافترائهم عليه .

ثم علل سوء صنيعهم بشدة استكبارهم فقال :

(إنه لا يحب المستكبرين) أى إن الله لا يحب المستكبرين عن توحيده والاستجابة لأنبيائه ورسوله ، بل يبغضهم أشد البغض وينتقم منهم أعظم الانتقام .

أخرج مسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل

النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، فقال رجل : يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة ، فقال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر من بظرك الحق ، وغمص الناس . وفي الصحيح « إن المتكبرين أمثال الذر يوم القيامة تطوهم الناس بأقدامهم لشكبرهم » .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤)
لِيُحْمَلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُخْلُونَهُمْ بِغَيْرِ
عِلْمٍ ، أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ (٢٥) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ
بَنِيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ
حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ
الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ ؟ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ
وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ،
فَأَلْقُوا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ، بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوًى
لِالْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩) .

شرح المفردات

الأساطير : واحدها أسطورة كأرجوحة وأراجيح ، وهى الترهات والأباطيل ،
والأوزار : الآثام واحدها وزر ، ساء ما يزرون : أى بئس شيئا يحملونه ، والمكر :
حرف غيرك عما يريد به بحيلة ، ويراد به هنا مباشرة الأسباب وترتيب المقدمات ،
فأتى الله بنيانهم من القواعد : أى أهلكه وأفناه كما يقال أتى عليه الدهر ، والقواعد:

الدعائم والعمد : واحدها قاعدة ، خرّ : سقط ، يخزيهم : يذلهم ويهينهم ، وتشاقون أى تخاصمون وتنازعون الأنبياء وأتباعهم فى شأنهم ، وأصله أن كلا من المتخاصمين فى شق وجانب غير شق الآخر ، والذين أوتوا العلم : هم الأنبياء ، والسلم : الاستسلام والخضوع ، بلى : بمعنى نعم ، والمثوى : مكان الثواء والإقامة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر دلائل التوحيد ونصب البراهين الواضحة على بطلان عبادة الأصنام ، أردف ذلك بذكر شبهات من أنكروا النبوة مع الجواب عنها ، وبين أنهم ليسوا ببدع فى هذه المقالة فقد سبقتهم أمم قبلهم فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، فأهلكهم فى الدنيا وسيخزيهم يوم القيامة بما فعلوا ، ثم ذكر أنهم حين يشاهدون العذاب يستسلمون ويقولون ما كنا نعمل من سوء ، ولكن الله عليم بهم وبما فعلوا ، ولا مثوى لأمثال هؤلاء المتكبرين إلا جهنم وبئس المثلوى هى :

الإيضاح

(وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين) أى وإذا قيل لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة من المشركين : أى شئ أنزله ربكم ؟ قالوا لم ينزل شيئاً إنما الذى يتلى علينا أساطير الأولين أى هو مأخوذ من كتب المتقدمين . ونحو الآية قوله حكاية عنهم : « وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِمْ بِكُرَّةٍ وَأَضْيَالًا » وكانوا يفترون على الرسول صلى الله عليه وسلم أقوالاً مختلفة ؛ فتارة يقولون إنه ساحر ، وأخرى إنه شاعر أو كاهن ، وثالثة إنه مجنون ، ثم قرأهم على ما خلقه زعيمهم الوليد بن المغيرة المخزومي كما حكى عنه الكتاب الكريم : « إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقَتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ » أى ينقل ويحكى ، فنفروا معتقدين

حجة قوله ، وصدق رأيه ، قبحهم الله ، وكان المشركون يقتسمون مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سألهم وفود الحاج ويقولون هذه المقاتلة .
ثم بين عاقبة أمرهم فقال :

(ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) أى وإنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك ، لتكون عاقبتهم أنهم يتحملون آثامهم وآثام الذين يتبعونهم ويوافقونهم أى يصير عليهم خطيئة ضلالهم فى أنفسهم ، وخطيئة إغوائهم وإضلالهم لغيرهم واقتدائهم بهم كما جاء فى الحديث « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » .

ونحو الآية قوله تعالى « وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غَمًّا كَانُوا يَفْتَرُونَ » والمراد من قوله (كاملة) أنه لا ينقص منها شىء ولا يكفر بنحو تكبة تصيبهم فى الدنيا ، ولا طاعة مقبولة تكفر بعض تلك الأوزار كما هو حال المؤمنين .

وفائدة قوله بغير علم - بيان أنهم يضلون من لا يعلم أنهم ضلال وأنهم على الباطل ، وفى ذلك تنبيه إلى أن كيدهم لا يروج على ذى لب ، وإنما يقلدهم الجيلة الأغبياء ، وزيادة تعيير وذم لهم ، إذ كان عليهم إرشاد الجاهلين لا إضلالهم .

وقصارى القول - إن هؤلاء قد دنسوا أنفسهم واختاروا لها الكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، فكانوا السبب فيما احتملوه من الأوزار والآصار ، كما كانوا واسطة فى تحمل من اتبعوهم هذه الأوزار أيضا ، والله تعالى لم يظالمهم فيما جازاهم به ، بل هم الذين قسطوا وجاروا على أنفسهم فاستحقوا هذا الجزاء .

ثم هددهم وتوعدهم فقال :

(ألا ساء ما يزرون) أى بئس شيئا يرتكبونه من الإثم والذنب ما يفعلون .

ثم بين لهم أن غائلة مكرهم عائدة إليهم ، ووبال ذلك لاحق بهم كدأب من قبلهم من الأمم الخالية الذين أصابهم من العذاب ما أصابهم بتكذيبهم لرسولهم فقال : (قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخرّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) أى إن حال من قبلهم وقد دبروا الحيل ونصبوا الحبائل ليكروا بها رسل الله فأبطلها الله وجعلها سبيلا لهلاكهم ، كحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالأساطين ، فضعفت أساطينه وسقط عليهم السقف فهلكوا تحته من حيث لا يشعرون بسقوطه - فما نصبوه من الأساطين وظنوه سبب القوة والتحصين فى البنيان صار سبب الهلاك ، كذلك هؤلاء كانت عاقبة مكرهم وبالأعلى عليهم ، ونحو الآية قولهم فى المثل : من حفر لأخيه جباً ، وقع فيه منكباً .

وخلاصة ذلك — إن الله أحبط أعمالهم وجعلها وبالاً عليهم ونقمة لهم .

وبعد أن بين سبحانه ما حل بأصحاب المكر فى الدنيا من العذاب والهلاك ،

بين حالهم فى الآخرة فقال :

(ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم) أى ثم إن ربك يوم القيامة يخزيهم بعذاب أليم ، ويقول لهم حين ورودهم عليه على سبيل الاستهزاء والسخرية : أين الذين كنتم تزعمون فى الدنيا أنهم شركائى ، وهلا تحضرونهم اليوم ليدفعوا عنكم ما يحل بكم من العذاب ، فقد كنتم تعبدونهم فى الدنيا وتتولونهم ، والولى ينصر وليه .

والمراد من المشاقة فيهم مخاصمة الأنبياء وأتباعهم فى شأنهم وزعمهم أنهم شركاء حقاً حين بينوا لهم ذلك ، والمراد بالاستفهام عن ذلك الاستهزاء والتبكيت والاحتقار لشأنهم ، إذ كانوا يقولون : إن صح ما تدعون إليه من عذابنا فالأصنام تشفع لنا .
والخلاصة — إنه لا شركاء ولا أما كن لهم .

ثم ذكر مقال الأنبياء والمرسلين فى شأنهم يوم القيامة .

(قال الذين أوتوا العلم إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين) أى قال الذين

أوتوا العلم بدلائل التوحيد وهم الأنبياء صلوات الله عليهم والمؤمنون الذين كانوا يدعونهم في الدنيا إلى دينهم ، فيجادلون وينكرون عليهم : إن الذل والهوان والعذاب يوم الفصل على الكافرين بالله وآياته ورسوله - ومرادهم بهذه المقالة الشامة وزيادة الإهانة للكافرين .

ثم بين أن الكافرين الذين يستحقون هذا العذاب هم الذين استمر كفرهم إلى أن تتوفاهم الملائكة وهم ظالموا أنفسهم فقال :

(الذين تتوفاهم الملائكة ظالماً لأنفسهم) أى الكافرين الذين تقبض ملائكة الموت أرواحهم وهم ظالموا أنفسهم ومعرضوها للعذاب الخالد بكفرهم ، وأى ظلم للنفس أشد من هذا الكفر .

ثم ذكر حالهم حينئذ من الخضوع والمذلة فقال :

(فأتقوا السلم ما كننا نعمل من سوء) أى فاستسلموا وانقادوا حين عاينوا العذاب قائمين : ما كننا نشرك بربنا أحدا ، وهم قد كذبوا على ربهم واعتصموا بالباطل رجاء النجاة ، ونحو الآية قوله تعالى حكاية عنهم : « وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كَفَّ مُشْرِكِينَ » .

ثم أ كذبهم سبحانه فيما قالوا فقال :

(بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون) أى بل كنتم تعملون أعظم سوء وأقبح الآثام والله عليم بذلك ، فلا فائدة لكم في الإنكار والله مجازيكم بأفعالكم .

ثم بين ما يترتب على قبيح أفعالهم فقال :

(فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فليئس مثوى المتكبرين) أى فادخلوا طبقات جهنم وذوقوا ألوانا من العذاب ، بما دنستم به أنفسكم من الإشراك بربكم واجترأكم عظيم الموبقات والمعاصي - خالدين فيها أبدا ، وبئس المقييل والمقام دار الذل والهوان لمن كان متكبرا عن اتباع الرسل والاهتداء بالآيات التي أنزلت عليهم ، وما أفضعها من دار ، وصفها ربنا بقوله : « لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا » .

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا خَيْرًا، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا
 فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ، وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠)
 جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ،
 كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ
 يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢).

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أحوال المكذبين بالله ورسوله الذين ينكرون وحيه ويقولون
 إن محمداً قد لفق أساطير الأولين وترهاتهم ونقلها للناس وادعى أنها من رب الأرض
 والسموات ، وذكر ما سينالهم من النكال والوبال إذ يدخلون جهنم خالدين فيها كفاء
 ما اجترحت أيديهم من الآثام وكسبته من المعاصى - أردف ذلك بوصف المؤمنين
 الذين إذا سئلوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً ، وبذكر ما أعد لهم من الخير والسعادة
 فى جنات تجرى من تحتها الأنهار جزاء وفاقاً لما أحسنوا من العمل وأتوا به من
 جميل الصنع .

الإيضاح

(وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً) أى وقيل للذين خافوا عقاب
 ربهم : أى شئ أنزله ربكم ؟ قالوا أنزل خيراً وبركة ورحمة لمن اتبع دينه وآمن برسوله .
 روى ابن أبي حاتم عن السدى قال : اجتمعت قريش فقالوا إن محمداً
 رجل حاو اللسان إذا كلمه الرجل ذهب بعقله ، فانظروا ناساً من أشرفكم
 المعبودين المعروفة أنسابهم فابعثوهم فى كل طريق من طرق مكة على رأس ليلة
 أو ليلتين ، فمن جاء يريده فردوه عنه ، فخرج ناس فى كل طريق ، فكان إذا أقبل

الرجل وافدا لقومه ينظر ما يقول محمد ، ووصل إليهم قال أحدهم أنا فلان بن فلان فيعرفه نسبه ويقول له : أنا أخبرك عن محمد . إنه رجل كذاب لم يتبعه على أمره إلا السفهاء والعبيد ومن لاخير فيهم ، وأما شيوخ قومه وخيارهم فمفارقون له ، فيرجع الوافد ، فذلك قوله تعالى : (وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين) فإن كان الوافد ممن عزم الله له الرشاد فقالوا له مثل ذلك ، قال : بئس الوافد لقومي إن كنت جئت حتى إذا بلغت مسيرة يوم رجعت قبل أن ألقى هذا الرجل وأنظر ما يقول وآتى قومي ببيان أمره ، فيدخل مكة فيلقى المؤمنين فيسألهم ماذا يقول محمد ؟ فيقولون خيرا .

ثم فصلوا هذا الخير فقالوا .

(للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة) أى للذين آمنوا بالله ورسوله وأطاعوه في هذه الدنيا ، ودعوا عباده إلى الإيمان والعمل بما أمر به - مثوبة حسنة من عند ربهم كفاء ما قدموا من عمل صالح .

ونحو الآية قوله : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

ثم ذكر جزاءهم في الآخرة وما فيه من جزيل النعم فقال :

(ولبار الآخرة خير) من الحياة الدنيا ، والجزاء فيها أتم من الجزاء في تلك . ونحو الآية قوله : « وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلِكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا » الآية ، وقوله : « وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ » وقوله لرسوله : « وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى » .

وفصل هذا الجزاء بقوله :

(ولنعم دار المتقين ، جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار) أى ولنعمت

الدار للمتقين جنات إقامة تجري من بين قصورها وأشجارها الأنهار ، حسنت مستقرا ومقاما .

ثم بين أن نعمها غير ممنوعة ولا مقطوعة فقال :

(لهم فيها ما يشاءون) أى للذين أحسنوا في هذه الدنيا في جنات عدن ما يشاءون مما تشتهى أنفسهم وتقرّ به أعينهم كما قال : « وَفِيهَا مَا تَشْتَهُى الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

ثم ذكر أن هذا جزاء على إحسان الأعمال فقال :

(كذلك يجزى الله المتقين) أى مثل ذلك الجزاء الأوفى يجزى الله الذين اتقوا الشرك والمعاصى .

وفى هذا حث المؤمنين على الاستمرار على التقوى وحث لغيرهم على تحصيلها .

ثم وصف الله المتقين بقوله :

(الذين تتوفاهم الملائكة طيبين) قال الراغب : الطيب من الناس من تعزى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الخصال ، وتحلى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال ، وهذا إيضاح لقول مجاهد : الطيب من تزكو أقواله وأفعاله .

(وطيبين) كلمة مختصرة جامعة لكثير من المعانى ، يدخل فيها إيمانهم بكل ما أمروا به واجتنابهم كل ما نهوا عنه ، واتصافهم بفضائل الأخلاق وجميل السجايا ، وبراعتهم من ذمير الرذائل ، وتوجههم إلى حضرة القدس ، وعدم اشتغالهم بعالم الشهوات واللذات الجسمانية ، ويتبع ذلك أنه يطيب لهم قبض أرواحهم ، لأنها لم تقبض إلا مع البشارة بالجنة حتى كأنهم مشاهدوها ، ومن هذه حاله لا يألم بالموت كما قال : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ، وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ . نِزْلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ » .

ثم ذكر ما تقوله لهم الملائكة تبشيرا لهم فقال :

(يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) أى تقول لهم الملائكة : سلام عليكم لا يحقق بكم مكروه بعد ، ادخلوا الجنة التى أعدها لكم ربكم ووعدكموها بما قدمتم من عمل ، وبما دأبتم على تقواه وطاعته ؛ والمراد من قوله (ادخلوا الجنة) البشارة بالدخول فيها بعد البعث إذا أريد الدخول بالأرواح والأبدان ، فإن أريد الدخول بالأرواح فحسب كان ذلك حين التوفى كما يشير إليه قوله صلى الله عليه وسلم « القبر إما روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار » .

أخرج ابن جرير والبيهقى عن محمد بن كعب القرظى قال : إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال : السلام عليك ياولى الله ، الله يقرأ عليك السلام وبشره بالجنة اه .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَنَّهُمْ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣)
فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤)

شرح المفردات

ينظرون : ينتظرون ، وأمر ربك : هو الهلاك وعذاب الاستئصال ، وحاق بهم أى أحاط بهم ، وخص استعمالا بإحاطة الشر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر طعن المشركين فى القرآن بنحو قولهم : إنه أساطير الأولين ، وإنه قول شاعر ، ثم هددهم بضروب من التهديد والوعيد ، ثم أتبعه بالوعد بالثواب لمن صدق به - قفى على ذلك ببيان أن الكفار لا يزدجرون عن أباطيلهم إلا إذا جاءتهم .

الملائكة قابضة أرواحهم ، أو يأتيهم عذاب الاستئصال فلا يبقى منهم أحدا ، ثم أتبعه ببيان أن هؤلاء ليسوا ببدع في الأمم ، فقد فعل من قبلهم مثل فعلهم فأصابهم الهلاك جزاء ما فعلوا ، وما ظلمهم الله ولكن هم قد ظلموا أنفسهم : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » .

الإيضاح

(هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة) أى ما ينتظر كفار مكة الذين قالوا إن القرآن أساطير الأولين ، إلا أن تأتيهم الملائكة تقبض أرواحهم .

(أو يأتى أمر ربك) بالعذاب فى الدنيا كما فعل بأسلافهم من الكفار ، فيرسل عليهم الصواعق أو يخسف بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ، وهذا تهديد لهم على تماديهم فى الباطل واعتراهم بالدنيا .

وخلاصة هذا — حشيم على الإيمان بالله ورسوله ، والرجوع إلى الحق قبل أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم من السالفين المكذبين لرسولهم .

ثم ذكر أنهم ليسوا بأول من كذب الرسل فقال :

(كذلك فعل الذين من قبلهم) أى هكذا تمادى أسلافهم فى شركهم حتى ذاقوا بأسنا وحل بهم عذابنا ونكالنا .

ثم ذكر أن ما يصيبهم جزاء لما كسبت أيديهم فقال :

(وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى وما ظلمهم الله بإنزال العذاب بهم ، لأنه أعذر إليهم وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه ، ولكن ظلموا أنفسهم بمخالفة الرسل وتكذيبهم ما جاءوا به .

ثم أعقبه بذكر ما ترتب على أعمالهم فقال :

(فأصابهم سيئات ما عملوا وحق بهم ما كانوا به يستهزئون) أى فلهذا أصابهم

عقوبة الله على ما فعلوا وأحاط بهم عذابه الأليم جزاء ما كانوا يسخرون من الرسل حين توعدوهم بعقابه .
ونحو الآية قوله : « هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ » .

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٧) .

شرح المفردات

الطاغوت: كل معبود دون الله من شيطان وكاهن وصنم وكل من دعا إلى ضلال ويقع على الواحد كقوله « يُرِيدُونَ أَنْ يُتَّخَذَ كُفُؤًا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ » وعلى الجمع كقوله « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاءَهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ » حقت: وجبت وثبتت بالقضاء السابق في الأزل لإصراره على الكفر والعناد .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن هؤلاء المشركين لا يزدجرون إلا إذا جاءتهم الملائكة بالتهديد والوعيد أو أتاهم عذاب الاستئصال كما حدث لمن قبلهم من الأمم جزاء استهزائهم برسلى الله - ففى على ذلك بيان أنهم طعنوا فى إرسال الأنبياء جملة وقالوا

إنا مجبورون على أعمالنا فلا فائدة من إرسالهم ، فلو شاء الله أن يؤمن به ولا يشرك به شيئاً ونحل ما أحله ولا نحرم شيئاً مما حرمنا لكان الأمر كما أراد ، لكنه لم يشأ إلا ما نحن عليه ، فما يقوله الرسل إنما هو من تلقاء أنفسهم لا من الله .
وقد رد الله عليهم مقالمهم بأنه كلام قد سبق بمثله المكذبون من الأمم السالفة ، وما على الرسل إلا التبليغ وليس عليهم الهداية ، ولم يترك الله أمة دون أن يرسل إليها هادياً يأمر بعبادته وينهاهم عن الضلال والشرك ، فمنهم من استجاب دعوته ومنهم من أضله الله على علم ، فحققت عليهم كلمة ربك وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، ثم أمرهم بالضرب فى الأرض ليروا آثار أولئك المكذبين الذين أخذوا بذنوبهم ، ثم ذكر رسول الله بأن الحرص على إيمانهم لا ينفعك شيئاً ، فإن الله لا يخلق الهداية جبراً وقسراً فيمن يختار الضلالة لنفسه ، كما لا يحد أحداً يدفع عنه بأس الله ونقمته .

الإيضاح

(وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آبائنا ولا حرمنا من دونه من شىء) أى وقال الذين أشركوا بالله فعبدوا الأصنام والأوثان من دون الله معتذرين عما هم عليه من الشرك محتجين بالقدر : ما نعبد هذه الأصنام إلا لأن الله قد رضى عبادتنا لها ، ولا حرمنا ما حرمنا من البحائر والسوائب والوصائل ونحو ذلك إلا لأن الله قد رضى ذلك منا ، ولو كان كارهها لما فعلنا لهدانا إلى سواء السبيل ، أو لعجل لنا العقوبة وما مكنتنا من عبادتها .
وقد رد الله عليهم شبهتهم بقوله :

(كذلك فعل الذين من قبلهم) أى ومثل ذلك الفعل الشنيع فعل الذين من قبلهم من الأمم واستن هؤلاء سنتهم وسلكوا سبيلهم فى تكذيب الرسل واتباع أفعال آبائهم الضلال .

ثم بين خطأهم فيما يقولون ويفعلون فقال :

(فهل على الرسل إلا البلاغ المبين) أى فهل على الرسل الذين أمروا بتبليغ رسالات ربهم من أمره ونهيهِه إلا إبلاغ الرسالة وإيضاح طريق الحق وإظهار أحكام الوحي التى منها أن مشيئته تعالى تتعلق بهداية مَنْ وَجَّهَ همته إلى تحصيل الحق كما قال « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » وليس من وظيفة إلقاء الناس إلى الإيمان شاءوا أو أبوا ، فإن ذلك ليس من شأنهم ولا من الحكمة التى عليها مدار التكليف حتى يستدل بعدم ظهور آثارها على عدم حقية الرسل أو على عدم تعلق مشيئة الله بذلك .

وقصارى هذا — إن الثواب والعقاب لا بد فيهما من أمرين : تعلق مشيئته تعالى بوقوع أحدهما ، وتوجيه همه العبد إلى تحصيل أسبابه وصرف اختياره إلى الدأب على إيجاده ، وإلا كان كل من الثواب والعقاب اضطراريا لا اختياريا ، والرسل ليس من شأنهم إلا تبليغ الأوامر والنواهي ، أما العمل بها إلقاء وقسرا فليس من وظيفة لافى كثير ولا قليل .

ثم بين سبحانه أن بعثة الرسل أمر جرت به السنة الإلهية فى الأمم كلها ، وجعلت سببا لهدى من أراد الله هدايته وزيادة ضلال من أراد ضلاله كالغذاء الصالح ينفع المزاج السوى ويقويه ويضر المزاج المنحرف ويفنيه فقال :

(ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) أى ولقد أرسلنا فى كل أمة سلفت قبلكم رسولا كما بعثنا فيكم رسولا ، فقال لهم : اعبدوا الله وحده لا شريك له واحذروا أن يعويكم الشيطان ويصدكم عن سبيل الله فتضلوا .

ونحو الآية قوله : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ » وقوله : « وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ؟ » .

وإجمال القول — إن المشيئة الشرعية للكفر منتفية ، لأنه تعالى نهاهم عن ذلك على السنة رسوله ، والمشيئة الكونية وهى تمكين عباده من الكفر وتقديره لهم

على حسب اختيارهم وضرف همهم إلى تحصيل أسبابه ، لاحتجة لهم فيها ، لأنه تعالى خالق النار وجعل أهلها من الشياطين وأهل الكفر ، وهو لا يرضى لعباده الكفر ، وله في ذلك حجة ناصعة وحكمة بالغة .

ثم بين سبحانه أنه أنكر على عباده المكذبين كفرهم بإنزال العقوبة بهم في الدنيا بعد إنذار الرسل فقال :

(فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة) أى فمن بعثنا فيهم رسلاً من هداة الله ووفقه لتصديقهم وقبول إرشادهم والعمل بما جاءوا به ، ففازوا وأفلحوا ونجوا من عذابه ، ومنهم من جاروا عن قصد السبيل فكفروا بالله وكذبوا رسله واتبعوا الطاغوت فأهلكهم بعقابه وأنزل بهم شديد بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين .

(فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) أى فسيروا في الأرض التى كان يسكنها القوم الظالمون ، والبلاد التى كانوا يعمرونها كديار عاد وثمود ومن سار سيرتهم ممن حقت عليه الضلالة ، وانظروا إلى آثار سخط الله عليهم ، لعلمكم تعتبرون بما حل بهم .

ثم خاطب سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم مسلماً له بما يراه من جحود قومه وشديد إمرائهم ومبالغتهم في عنادهم مع حذبه عليهم وعظيم رغبته في إيمانهم ، ومبيناً له أن الأمر بيد الله وليس له من الأمر شيء فقال :

(إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل) أى إن تحرص أيها الرسول على هداية قومك - لا ينفعهم حرصك إذا كان الله يريد إضلالهم بسوء اختيارهم وتوجيه عزائمهم ، إلى عمل المعاصى والإشراك بربهم .

ونحو الآية قوله : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » وقوله حكاية عن مقالة نوح لقومه : « وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ » وقوله : « مَنْ يَضَلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » .

ومجمل القول — إن من اختار الضلالة ووجه هتمه إلى تحصيل أسبابها فإلله سبحانه لا يخلق فيه الهداية فسرا وإجاء ، لأن مدار الإيمان والكفر الاختيار لا الإجاء والاضطرار .

(وما لهم من ناصرين) أى وما لهم ناصر ينصرهم من الله إن أراد عقوبتهم كما قال : « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ » .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ، بلى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَا أَن نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠) .

شرح المفردات

الجهد ، بفتح الجيم : المشقة : وبضمها : الطاقة ، وجهد أيمانهم : أى غاية اجتهدهم فيها ، وبلى : كلمة جواب كنهم لكنها لا تقع إلا بعد النفي فتثبت ما بعده ، وعدا عليه حقا : أى وعد ذلك وعدا عليه حقا ، أى ثابتا متحققا لا شك فيه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه حججهم وقولهم إنه لا حاجة إلى الأنبياء جميعا ، لأننا مجبورون فيما نفعل ، وأنه لو شاء الله أن يهتدى لكان ، دون حاجة إلى إرسال الأنبياء ، وردّه عليهم بأن الحاجة إليهم إنما هى فى تبليغ ما أمر به وترك ما نهى عنه ولا يلزمون أحدا بإيمان ولا كفر — أردف هذا بشبهة أخرى لهم ، إذ قالوا إنما نحتاج إلى الأنبياء لو كان لنا عودة إلى حياة جديدة بعد الموت فيها ثواب وعقاب ، ولكن

العودة إلى حياة أخرى غير ممكنة ولا معقولة - ذلك أن الجسم إذا تفرق وذهبت أجزاؤه كل مذهب امتنع أن يعود بعينه ليحاسب ويعاقب ، فرد الله عليهم ما قالوا بأن هذا ممكن وقد وعد عليه وعدا حقا ، وأنه فعل ذلك ليميز الخبيث من الطيب والعاصي من المطيع ، وأيضا فياجده تعالى للأشياء لا يتوقف على سبق مادة ولا آلة ، بل يقع ذلك بمحض قدرته ومشيئته وليس لقدرته دافع ولا مانع .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه فسكان فيما تكلم به ، والذي أرجوه بعد الموت إنه لكذا وكذا ، فقال له المشرك : إنك لتزعم أنك تبعث من بعد الموت ، وأقسم جهد عيني لا يبعث الله من يموت ، فأنزل الله (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) الآية . وأخرج هؤلاء عن أبي هريرة قال : « قال الله سبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له أن يسبني ، وكذبني ولم يكن ينبغي له أن يكذبني ، فأما تكذيبه إياي فقال (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت) وقلت : (بلى وعدا عليه حقا) وأماسبه إياي فقال : (إن الله ثالث ثلاثة) وقلت : (هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد) » .

الإيضاح

(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت) أى إنهم اجتهدوا فى الحلف وأغلظوا فى الأيمان أنه لا يقع بعث بعد الموت ، وهذا استبعاد منهم لحصوله ، من جراء أن الميت يقضى ويعدم ، والبعث إعادة له ، وإعادة المعدوم مستحيلة . وقد رد الله عليهم وكذبهم بقوله :

(بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى بلى سيبعثه الله بعد مماته وقد وعد بذلك وعدا حقا لا بد منه ، ولكن أكثر الناس لجهلهم بشئون الله وصفاته كماله من علم وقدره وحكمة ونحوها ، لا يعلمون أن وعد الله لا بد من نفاذه .

وأنه باعثهم بعد مماتهم يوم القيامة أحياء ، ومن قبل هذا جرءوا على مخالفة الرسل ووقعوا في الكفر والمعاصي .

ثم ذكر سبحانه الحكمة في المعاد ، وقيام الأجساد يوم التناد فقال :
(ليبين لهم الذي يختلفون فيه) أى بل يبعثهم ليبين لهم وجه الحق فيما جاء به الرسل وخالفتهم فيه أمهم ، فيمتاز الخبيث من الطيب والمطيع من العاصي والظالم من المظلوم ، إلى نحو أولئك مما كان مدار دعوة أولئك الرسل وأنكرته الأمم الذين أرسلوا إليهم ، ويجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

(وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين) أى وليعلم الذين جحدوا وقوع البعث والجزاء أنهم كانوا كاذبين في قولهم : لا يبعث الله من يموت ، وسيدعون إلى نار جهنم دعا وتقول لهم الزبانية : « هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ . أَسِحَّرَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصُرُونَ . أَضَلُّوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

ثم أخبر سبحانه عن كامل قدرته وأنه لا يعجزه شئ في الأرض ولا في السماء فقال :
(إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) أى إنا إذا أردنا أن نبعث من يموت فلا تعب علينا ولا نصب في إحيائه ولا بعثه ، لأننا إذا أردنا ذلك فإنا نقول له : كُنْ فَيَكُونُ ، لا معاناة فيه ولا كلفة علينا .

ونحو الآية قوله : « فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » وقوله : « وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » وقوله : « مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَبْشُرُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ » .

وخلاصة هذا — إنه تعالى مثل حصول المقدورات وفق مشيئته وسرعة حدوثها حين إرادته ، بسرعة حصول الأمور حين أمر الأمر وقوله دون هوادة ولا تراخ .

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ،
وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) .

المعنى الجملى

بعد أن حكى سبحانه أن الكفار أقسموا بالله جهد أيمانهم على إنكار البعث والقيامة، وتماديهم في النفي والضلالة ، (ومن هذه حاله فليس بالعسير عليه أن يقدم على إيذاء المؤمنين بالوأن من الإيذاء حتى يضطروهم إلى الهجرة عن الديار ومفارقة الأهل والأوطان) - ذكر هنا حكم تلك الهجرة وبين ما لهؤلاء المهاجرين من حسنات في الدنيا وأجر في الآخرة ، من جراء أنهم فارقوا أوطانهم وصبروا وتوكلوا على الله . وفي هذا ترغيب لغيرهم في الهجرة واحتمال كل أذى في سبيل الله احتسابا للأجر . أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في هذه الآية قال : هؤلاء أحباب محمد ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم حتى لحق طوائف منهم بأرض الحبشة ، ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلنا لهم دار هجرة وجعل لهم أنصارا من المؤمنين .

الإيضاح

(والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً) أى والذين فارقوا قومهم ودورهم وأوطانهم وذهبوا إلى بلاد أخرى احتسابا لأجر الله ونيلا لمرضاته من بعد ما نالهم من الكفار من أذى في أنفسهم وأموالهم - لنسكنهم في الدنيا مساكن حسنة يرضونها ، إذ هم لما تركوا مساكنهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله عوضهم خيرا منها في الدنيا ، فسكن لهم في البلاد ، وحكمهم في رقاب العباد ، وصاروا أمراء وحكاما ، وكل منهم للمعتقين إماما .

ثم أخبر سبحانه أن ثوابه لهم في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا فقال :

(ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) أى ولثواب الله إياهم على هجرتهم من أجله في الآخرة أكبر ، لأن ثوابه إياهم هنالك الجنة التى لا يفنى نعيمها ولا يزول خيرها .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عمر بن الخطاب أنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول خذ بارك الله لك فيه ، هذا ما وعدك الله في الدنيا ، وما ذخره لك في الآخرة أفضل ثم تلا هذه الآية .

(الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) أى هؤلاء هم الذين صبروا على ما نالهم من أذى قومهم ولم يرجعوا الفهقري ، وعلى مفارقة الوطن المحبوب ، وعلى احتمال الغربة بين ناس لم تجمعهم بهم لغة نسب ولا جوار فى دار ، وقد فوضوا أمرهم إلى ربهم الذى أحسن لهم العاقبة فى الدنيا والآخرة ، وأعرضوا عن كل ما سواه .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٤٧) أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَكَّهُمْ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ

وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠)

شرح المفردات

أهل الذكر : أهل الكتاب كما قال : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ
الذِّكْرِ » أى التوراة ، والبينة : هى المعجزات الدالة على صدق الرسول ، والزبر :
واحدها زبور ، وهى كتب الشرائع والتكاليف التى يبلغها الرسل إلى العباد ، والذكر :
القرآن ، لتبين للناس : أى لتوضح لهم ما خفى عليهم من أسرار التشريع ، والمكر :
السعى بالفساد خفية ، والسيئات : أى الأعمال التى تسوءهم عاقبتها ، يحسف بهم
الأرض : أى يزيلها من الوجود وهم على سطحها ، فى قلبهم : أى فى أسفارهم وسيرهم
فى البلاد البعيدة للسعى فى أرزاقهم كما قال : « لَا يَغْرَبَنَّكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا
فِي الْبِلَادِ » بمعجزين : أى بفاتنين الله تعالى بالهرب والفرار ، والتخوف : التنقص
من قولهم تخوفت الشيء وتخيفته إذا تنقصته ، والمراد أنه ينقص أموالهم وأنفسهم
قليلا قليلا حتى يأتى عليها الفناء جميعا ، ويتفيا : من الفى يقال فاء الظل ففى فىئا
إذا رجع وعاد بعد ما أزاله ضياء الشمس ، والظلال : واحدها ظل وهو ما يكون
أول النهار قبل أن تناله الشمس ، قال رؤبة : كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه
فهو فى ، ومالم يكن عليه الشمس فهو ظل ، واليمن والشمال : جانبا الشيء الكثيف
من الجبال والأشجار وغيرها ، والسيجود : الانقياد والخضوع من قولهم سجدت
النخلة إذا مالت لسكرة الحمل ، ومنه قوله : « واسجد لقرء سوء فى زمانه » أى اخضع
له ، داخرون : أى صاغرون منقادون واحدهم داخر وهو الذى يفعل ما تأمر به شاء
أو أبى ، يخافون ربهم : أى يخافون عقابه ، من فوقهم : أى بالقهر والغلبة كما قال :
« وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ » .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر جلت قدرته ما قاله المشركون من أنهم لا حاجة بهم إلى الأنبياء ، لأن الحاجة إليهم إنما تدعو لو كانت هناك حياة أخرى يحاسبون فيها وهم لا يصدقون بها وليس من المعقول أن تكون - أردف ذلك بشبهة أخرى لهم إذ قالوا هب الله أرسل رسولا فليس من الجائز أن يكون بشرا فالله أعلى وأجل من أن يكون رسوله واحدا من البشر ، فلو بعث إلينا رسولا لبعثه ملكا ، ثم أجاب عن هذه الشبهة بأن سنة الله أن يبعث رسوله من البشر ، وإن كنتم في شك من ذلك فاسألوا أهل الكتاب عن ذلك ، ثم هددهم أن يخسف بهم الأرض كما خسف بمقارون ، أو يأتيهم بعذاب من السماء فيهلكهم بغتة كما فعل بقوم لوط ، أو يأخذهم وهم يتقلبون في أسفارهم ومعايشهم ، أو يأخذهم طائفة بعد أخرى ؛ ثم أعتب هذا بما يدل على كمال قدرته في تدبير أحوال العالم العاوى والسفلى على أتم نظام وأحكم تقدير .

الإيضاح

(وما أرسلنا من قبلك إلا رجلا نوحى إليهم) أى وما أرسلنا من قبلك رسلا إلى أممهم للدعوة إلى توحيدنا والانتهاى إلى أمرنا - إلا رجلا من بنى آدم نوحى إليهم لاملأ نكته .

ومجمل القول - إننا لم نرسل إلى قومك إلا مثل الذين كنا نرسلهم إلى من قبلهم من الأمم أى رسلا من جنسهم وعلى منهاجهم ؛ روى الضحاك عن ابن عباس أن الله لما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم أنكر العرب ذلك وقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا فأنزل الله : « أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ » الآية .

ونحو الآية قوله : « وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ » وقوله : « مَا هَذَا

إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ. وَلَكِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ » وقوله : « وَقَالُوا لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا » .

(فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون) أى فاسألوا أهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى : أبشرا كانت الرسل إليهم أم ملائكة ؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم . وإن كانوا بشرا فلا تتكروا أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم رسولا .
(بالبينات والزر) تقول العرب زبرت الكتاب : أى كتبته كما قال تعالى « وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ » أى وما أرسلنا رسلا إلا رجلا بالأدلة والحجج التى تشهد لهم بصدق نبوتهم ، والكتب التى تشمل التكاليف والشرائع التى يبلغونها من الله إلى العباد .

(وأنزلنا إليك الذكريات للناس ما نزل إليهم) أى وأنزلنا إليك القرآن تذكيرا وعظة للناس ، لتعرفهم ما أنزل إليهم من الأحكام والشرائع وأحوال القرون المهلكة بأفانين العذاب جزاء عنادهم مع أنبيائهم ، وتبين لهم ما أشكل عليهم من الأحكام وتفصل لهم ما أجهل على حسب مراتبهم فى الاستعداد والفهم لأسرار التشريع .
(ولعلمهم يتفكرون) أى وتوقعا منك وانتظارا لتفكيرهم فى هاتيك الأسرار والعبر ، وإبعادا لهم عن سلوك سبيل الغابرين من المكذبين حتى لا يصيبهم مثل ما أصابهم .
ثم حذرهم وخوفهم مغبة ما هم فيه من العصيان والكفر فقال :

(أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون . أو يأخذهم فى تقلبهم فاهم بمعجزين . أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم) أى أفأمن الذين مكروا برسول الله من أهل مكة ، وراموا صد أصحابه عن الإيمان بالله أن يصيبهم بعقوبة من عنده :

(١) إما بأن يخسف بهم الأرض ويبيدهم من صفحة الوجود كما فعل بقارون من قبل .

(٢) وإما بأن يأتيهم بعذاب من السماء فجأة من حيث لا يشعرون كما صنع بقوم لوط .

(٣) وإما بأن يأخذهم بعقوبة وهم في أسفارهم يكدحون في الأرض ابتغاء الرزق ، وما هم بممتنعين عليه فائتين له بالهرب والفرار كما قال : « وَأْمُرْ لَّهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » .

(٤) وإما بأن يخيفهم أولاً ثم يعذبهم بعد ذلك ، بأن يهلك طائفة فتخاف التي تليها حتى يأتي عليهم جميعا ، ويكون هذا أشد عليهم إيلا ما ووحشة .

وختم الآية بما ختم به ، لبيان أنه لم يأخذهم بعذاب معجل ، بل أخذهم بحالات يخاف منها كالرياح الشديدة والصواعق والزلازل ، وفي ذلك امتداد وقت ومهلة يمكن فيها تلافي التقصير ، وهذا من آثار رحمته بعباده .

ثم ذكر آثار قدرته على خلقه فقال :

(أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفياً ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون) أى ألم ينظر هؤلاء الذين مكروا السيئات إلى ما خلق الله من الأجسام القائمة كالأشجار والجبال التي تتفياً ظلالها وترجع من موضع إلى موضع عن اليمين والشمائل ، فهي في أول النهار على حال ثم تنقلص ثم تعود إلى حال أخرى في آخر النهار مائلة من جانب إلى جانب ومن ناحية إلى أخرى ، صاغرة منقادة لربها خاضعة لقدرته .

ثم ذكر ما هو كالدليل لما سلف فقال :

(والله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون) أى والله يخضع ما في السموات وما في الأرض مما يدب عليها ، وكذلك ملائكته الذين في السماء وهم لا يستكبرون عن التذلل والخضوع له .

(يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) أى يخاف هؤلاء الملائكة

والدواب التي في الأرض ربهم الذي هو من فوقهم بالقوة والقهر - أن يعذبهم إن عصوه ، ويفعلون ما أمرهم به ، فيؤدون حقوقه ويحتجبون سخطه .
ونحو الآية قوله : « وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلًّا لَهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْآصَالِ » .
ومجمل القول - إنه تعالى نبه إلى أنه لعظمته وكبريائه تدين له المخلوقات بأسرها جمادها ونباتها وحيوانها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة .

وَقَالَ اللّٰهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلٰهُ وَاحِدٌ ، فَإِىَّى فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّىْنُ وَاصِبًا ، أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ؟ (٥٢) وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) .

شرح المفردات

الرهبة : الخوف ، والدين : الطاعة ، والواصب : الدائم كما قال : « لَّهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ » وتجأرون : أى تتضرعون لكشفه . وأصل الجوار : صياح الوحش ثم استعمل في رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة .

المعنى الجملى

لما بين سبحانه في الآيات السابقة أن كل ما سواه من جماد وحيوان وإنس وجن وملاك - منقاد له وخاضع لسلطانه - أتبع ذلك بالنهى عن الشرك به ، وبيان أن كل ما سواه فهو ملكه وأنه مصدر النعم كلها ، وأن الإنسان يتضرع إليه إذا مسه

الضر، فإذا كشفه عنه رجع إلى كفره، وأن الحياة الدنيا قصيرة الأمد ثم يعلم الكفار مدئذ ما يحل بهم من النكال والوبال جزاء لهم على سوء أعمالهم وقبيح أفعالهم .

الإيضاح

(وقال الله لا تتخذوا إلهين إنما هو إله واحد فيأبى فارهبون) أى وقال الله لعباده : لا تتخذوا لى شريكاً ولا تعبدوا سواى ، فإنكم إذا عبدتم معى غيرى جعلتموه لى شريكاً ، ولا شريك لى ، إنما هو إله واحد ، ومعبود واحد ، وأنا ذاك ، فاتقونى وخافوا عقابى ، بمعصيتكم إياى ، بإشراككم بى غيرى ، أو عبادتكم سواى .

وإنما ذكر العدد مع أن صيغة التثنية مغنية عنه ، للدلالة على أن المنهى عنه هى الاثنينية وأنها منافية للألوهية ، كما أن وصف الإله بالوحدة فى قوله (إنما هو إله واحد) للدلالة على أن المقصود إثبات وحدانية وأنها من لوازم الألوهية ، أما الألوهية فغير منكورة ولا متنازع فيها .

والخلاصة — إنه تعالى أخبر أنه لا إله إلا هو وأنه لا تنبغى العبادة إلا له وحده . (وله ما فى السموات والأرض وله الدين واصباً) أى والله ملك ما فى السموات والأرض من شىء ، لا شريك له فى شىء من ذلك ، وهو الذى خلقهم ، وهو الذى يرزقهم ، ويبيدهم حياتهم وموتهم ، وله الطاعة والإخلاص على طريق الدوام والثبات . ثم ذكر ما هو كالنتيجة لذلك فقال :

(أفغير الله تتقون) أى أبعد أن علمتم هذا ترهبون غير الله وتحذرون أن يسلبكم نعمة أو يحجب لكم أذى ، أو ينزل بكم نقمة إذا أنتم أخلصتم العبادة لربكم ، وأفردتم الطاعة له ، وما لكم نافع سواه .

وإجمال ذلك — إنكم بعد أن عرفتم أن إله العالم واحد ، وعرفتم أن كل

ما سواه فهو فى حاجة إليه فى وجوده وبقائه ، كيف يعقل أن يكون لامرئ رغبة
أو رهبة من غيره ؟

ولما بين أن الواجب ألا يتقى غير الله — ذكر أنه يجب ألا يشكر إلا
هو فقال :

(وما بكم من نعمة فمن الله) أى وما بكم من نعمة فى أبدانكم من عافية وصحة
وسلامة ، وفى أموالكم من نماء وزيادة ، فالله هو المنعم بها عليكم ، والمتفضل بها
لا سواه ، فبيده الخير وهو على كل شئ قدير ، فيجب عليكم أن تشكروه على هذه
النعم المتواصلة ، وإحسانه الدائم الذى لا ينقطع .

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

(ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون) أى ثم إذا أصابكم فى أبدانكم سقم ومرض
أو حاجة عارضة ، أو شدة وجهد فى العيش ووسائل الحياة ، فإليه تصرخون بالدعاء
وتستغيثون به ليكشف ذلك عنكم ، علما منكم أنه لا يقدر على إزالة ذلك إلا هو .

(ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم يرميهم يشركون) أى ثم إذا
وهب لكم ربكم العافية ، ورفع عنكم ما أصابكم من مرض فى أبدانكم ، أو شدة
فى معاشكم بتفريج البلاء عنكم إذا جماعة منكم يجعلون لله شريكا فى العبادة ،
فيعبدون الأوثان ، ويدبحون لها الذبائح ، شكرا لغير من أنعم بالفرج ، وأزال
من الضر .

ونحو الآية قوله : (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْيَمْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ ،
فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضُوا وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا » .

قال السيد الألوسى فى تفسيره : وفى الآية ما يدل على أن صنيع العوام اليوم
من الجوار إلى غير الله تعالى ممن لا يملك لهم بل ولا لنفسه نفعاً ولا ضراً — عند
إصابة الضر بهم وإعراضهم عن دعائه تعالى بالكلية — سفه عظيم وضلال جديد

لكنه أشد من الضلال القديم ، ومما تقشعر منه الجلود ، لحصوله ممن يؤمن باليوم الموعود .

إن بعض المتشيخين قال لى وأنا صغير : إياك ثم إياك أن تستغيث بالله إذا خطب دهاك ، فإن الله تعالى لا يعجل فى إغاثتك ، ولا يهتمه سوء حالتك ، وعليك بالاستغاثاة بالأولياء السالفين ، فإنهم يعجلون فى تفريج كربك ، ويهيمهم سوء ما حل بك ، فنج ذلك سمعى ، وهى دمعى ، وسألت الله تعالى أن يعصنى والمسلمين من أمثال هذا الضلال المبين ، ولكثير من المتشيخين اليوم كلمات مثل ذلك اه .

(ليكفروا بما آتيناهم) أى قيضنا لهم ذلك لتكون عاقبة أمرهم أن يحمدوا نعم الله عليهم ، وأنه هو المسدى لها ، وأنه هو الكاشف للنقم عنهم . وقد فعلوا ذلك لسوء استعدادهم وخبت طويتهم ، وبما ران على قلوبهم من الكفر والعصيان ، فحمدوا فضل الملك الديان ، وإحسان صاحب الطول والإحسان . ثم توعدهم على سوء صنيعهم وأبان لهم عاقبة أمرهم فقال :

(فتمتعوا فسوف تعلمون) أى فتمتعوا فى هذه الحياة الدنيا إلى أن توافيكم آجالكم ، وتبلغوا الميقات الذى وقت لحياتكم وتمتعكم فيها ، وبعدئذ ستصيرون إلى ربكم ، فتعلمون عند لقائه وبال ما كسبت أيديكم سوء مغبة عملكم ، وتندمون حين لا ينفع الندم .

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْمَلُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ، أَيْمَسْكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ

فِي الثَّرَابِ ؟ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
مَثَلُ السَّوْءِ ، وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠) .

شرح المفردات

تفكرون: أى تكذبون ، سبحانه: أى تنزيها له عن النقائص ؛ والبشارة فى أصل
اللغة إلقاء الخبر الذى يؤثر فى تغير بشرة الوجه ، ويكون فى السرور والحزن فهو حقيقة
فى كل منهما ، وعلى هذا جاءت الآية ، ثم خص فى عرف اللغة بالخبر السار ، ويقال
لمن لقي مكروها قد اسود وجهه غما وحزنا ، ولمن ناله الفرح والسرور استنار وجهه
وأشرق ، والكظيم: الممتلئ غما وحزنا ؛ والكظم مخرج النفس يقال أخذ بكظمه
إذا أخذ بمخرج نفسه ، ومنه كظم غيظه أى حبسه عن الوصول إلى مخرج النفس ،
ويتوارى: أى يستخفى ؛ وقد كان من عادتهم فى الجاهلية أن يتوارى الرجل حين
ظهور آثار الطلق بامراته ، فإن أخبر بذكر ابتهاج ، وإن أخبر بأنثى حزن وبقى
متواريا أياما يدير فيها ما يصنع ، ويمسكه: أى يحبسه كقوله (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ)
والهون: الهوان والذل ، ويدسه: أى يخفيه ، ومثل السوء: أى الصفة السوء ، وهى
احتياجهم إلى الولد وكرهاتهم للبنات خوف الفقر والعار ، ولله المثل الأعلى: أى الصفة
العليا وهى أنه لا إله إلا هو ، وأن له جميع صفات الجلال والكمال .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه سخف أقوال أهل الشرك ، أردف ذلك بذكر قبائح أفعالهم
التي تمجها الأذواق السليمة .

الإيضاح

حكى سبحانه بعض قبائح المشركين الذين عبدوا الأوثان والأصنام وعدد منها:
(١) (ويعملون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم) أى ويجعل هؤلاء المشركون

لِلْأَنْعَامِ الَّتِي لَا يَعْلَمُونَ مِنْهَا ضَرًّا وَلَا نَفْعًا نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ
وغيرهما مما خلق الله يتقربون به إليها ، وهذا إشراف منهم لما لا يعلمون منه الفائدة
بالذي يعلمون أنه الذي هو خلقهم وهو الذي رزقهم وهو الذي ينفعهم وهو الذي يضرهم
دون غيره ، وقد سبق تفصيل ذلك فيما حكى الله عنهم في سورة الأنعام بقوله : « وَجَعَلُوا
لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ،
فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَعْلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ
سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » .

ثم توعدهم على ما فعلوا فقال :

(تَاللَّهِ لَتَسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ) أَيْ أَقْسِمُ لَأَسْأَلَنَّكُمْ عَمَّا افْتَرَيْتُمُوهُ وَاخْتَلَقْتُمُوهُ
مِنَ الْبَاطِلِ ، وَلَأَعَاقِبَنَّكُمْ عَلَى ذَلِكَ عِقَابٌ تَكُونُ كِفَاءً لِكُفْرَانِكُمْ نَعْمَى ، وَافْتِرَائِكُمْ عَلَىَّ
وَنَحْوِ الْآيَةِ قَوْلُهُ : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

وهذا السؤال إنما هو سؤال تأنيب وتقرير لهم على ما اجترحوا من أقوال وأفعال
(٢) (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ) أَيْ وَلَقَدْ بَلَغَ مِنْ جَهْلِ
هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ وَعَظِيمِ أَبَاطِيلِهِمْ أَنْ افْتَرَوْا عَلَى مَنْ خَلَقَهُمْ ، وَدَبَّرَ شُؤْنَهُمْ ، وَاسْتَحَقَّ
شُكْرَهُمْ عَلَى جَزِيلِ نِعَمَائِهِ — الْبَنَاتُ فَقَالَتْ خِزَاعَةُ الْمَلَائِكَةِ بَنَاتُ اللَّهِ كَمَا قَالَ عَزَّ
اسْمُهُ : « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَانَّآ » وَعَبَدُوهَا مَعَ اللَّهِ وَقَدْ
أَخْطَئُوا فِي ذَلِكَ خَطَأً كَبِيرًا وَضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ، إِذْ نَسَبُوا إِلَيْهِ الْأَوْلَادَ وَلَا أَوْلَادَ لَهُ ،
وَأَعْطَوْهُ مِنْهَا أَحْسَبَهَا وَهِيَ الْبَنَاتُ وَهَمْ لَا يَرْضُونَهَا لَأَنْفُسِهِمْ ، بَلْ لَا يَرْضُونَ إِلَّا الْبَنِينَ
كَمَا قَالَ تَعَالَى : « أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى ؟ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى » وَقَالَ :
« أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . أَصْطَفَى الْبَنَاتِ
عَلَى الْبَنِينَ ؟ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ » .

والمراد من قوله ولهم ما يشتهون : أنهم يختارون لأنفسهم الذكور ويأفون من
البنات التي نسبوها إلى الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

قال ابن عباس يقول : يجعلون لى البنات ، ترتضونهن لى ولا ترتضونهن لأنفسكم .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(وإذا بشر أحدكم بالأثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشره ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب) أى وإذا بشر أحد هؤلاء الذين جعلوا لله البنات بولادة أثنى ظل وجهه مسودا كئيبيما من الهم ممثليا غيظا وحنقا من شدة ما هو فيه من الحزن ، يتوارى من الناس خجلا واستحياء ، ولا يود أن يراه أحد من مساءته بما بشر بها ، ويدور بخلد أحد أمرين : إما أن يمسكها ويبقيها بقاء ذلة وهوان فلا يورثها ولا يعنى بها بل يفضل الذكور عليها ، وإما أن يدسها فى التراب ويدفنها وهى حية ، وذلك هو الوأد للذكور فى قوله تعالى « وَإِذَا الْمَوْءَدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ » .

ومعنى قوله (ألا ساء ما يحكمون) بئس ما قالوا وبئس ما قسموا وبئس ما نسبوه إليه ، فإنهم بالغوا فى الاستنكاف من البنت من وجوه :

(١) اسوداد الوجه .

(٢) الاختفاء من القوم من شدة نفرتهم منها .

(٣) إنهم يقدمون على قتلها ووأدها خشية العار أو خوف الجوع والفقر .

ثم جعل تذييلا لما تقدم قوله :

(للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء) أى للذين لا يصدقون بالمعاد والثواب والعقاب من المشركين ، صفة السوء التى هى كالمثل فى القبح من حاجتهم إلى الولد ليقوم مقامهم بعد موتهم ، وتفضيلهم للذكور للاستظهار بهم ، ووأدهم للبنات خشية العار أو الفقر ، وذلك يومى إلى العجز والقصور والشح البالغ أقصى غاية .

(والله المثل الأعلى) أى وله تعالى الصفة العاليا ، وهى أنه الواحد المنزه عن الولد . وأنه لا إله إلا هو ، وله صفات الكمال والجلال من القدرة والعلم والإرادة ونحو ذلك .

(وهو العزيز الحكيم) أى وهو المنيع تكبرا وجلالا لا يغلبه غالب ، الحكيم الذى لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة البالغة .

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَِا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ (٦٢) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَآلِهِمُ الْيَوْمَ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) .

شرح المفردات

المراد من الناس: العصاة ، والأجل المسمى: يوم القيامة ، ويجعلون: يثبتون وينسبون إليه ، وما يكرهون: هى البنات ، وتصف ألسنتهم الكذب: أى يكذبون؛ كما يقال عنها تصف السحر أى ساحرة ، وقدّها يصف الهيف أى هى هيفاء ، لا جرم: أى حقا ، مفرطون: أى مقدمون معجل بهم إليها من أفرطته إلى كذا أى قدمته ، ويقال لمن تقدم إلى الماء لإصلاح الدلاء والأرسان فارط وفرط ، وليهم: ناضروهم ومساعدتهم ، اليوم: أى فى الدنيا .

المعنى الجملى

لما حكي سبحانه عن المشركين عظيم كفرهم وقبيح أفعالهم — بين هنا حلمه بخلقه مع ظلمهم وأنه يمهلهم بالعقوبة إظهارا لفضله ورحمته ، ولو أخذهم بما كسبت

أيديهم ما ترك على ظهر الأرض دابة ، أما الظالم فيظلمه وأما غيره فبشؤمه كما قال سبحانه : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » ولكنه سبحانه يحلم ويستروينظر إلى أجل مسمى ، ثم سلى رسوله صلى الله عليه وسلم عما كان يناله من أذى عشيرته بأن قومه ليسوا يبدع في الأمم فقد أرسلنا رسلا إلى أمم من قبلك فكذبوهم فلك بهم أسوة ، فلا يحزنك تكذيبهم ولا تبغ نفسك عليهم أسى وحسرة.

الإيضاح

(ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة) أى ولو يؤاخذ الله عصاة بنى آدم بمعاصيهم ما ترك على ظهر الأرض دابة .

أخرج البيهقي وغيره عن أبي هريرة أنه سمع رجلا يقول : إن الظالم لا يضر إلا نفسه ، فقال لا والله بل إن الحبارى فى وكرها لتموت من ظلم الظالم .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه كاد الجعل (الجحش) يهلك فى جحره بذنب ابن آدم ثم قرأ الآية .

وأخرج أحمد عن أبي هريرة أنه قال : ذنوب ابن آدم قتلت الجعل فى جحره ثم قال إى والله زمن غرق قوم نوح عليه السلام .

(ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) أى ولكن يحمله يؤخر هؤلاء الظالمة فلا يعاجلهم بالعقوبة إلى أجل سماه الله لعذابهم ، فإذا جاء الوقت الذى وقت لهلاكهم لا يستأخرون عن الهلاك ساعة فيمهلون ولا يستقدمون قبله حتى يستوفوا أعمارهم ، وقد تقدم نظير هذا .

(ويجعلون لله ما يكرهون) أى وينسب هؤلاء المشركون إلى الله سبحانه ما يكرهون لأنفسهم من البنات والشركاء فى الرياسة .

(وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسن) أى ويكذبون فيما يدعون إذ يزعمون

أن لهم العاقبة الحسنى عند الله وهى الجنة على تقدير وجودها ، فقد روى أنهم قالوا :
 إن كان محمد صادقاً فى البعث فلنا الجنة بما نحن عليه ، فرد الله عليهم مقالهم بقوله :
 (لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون) أى حقاً إن لهم النار وليس بعد عذابها
 عذاب ، وأنه معجل بها إليهم وهم مقدمون لها .

ثم بين سبحانه أن هذا الصنيع الذى صدر من قريش قد حدث مثله من الأمم
 السالفة فى حق أنبيائهم فقال مسلماً رسوله فيما كان يناله من الغم بسبب جهالاتهم .
 (تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزى لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم
 ولهم عذاب أليم) أى والله لقد أرسلنا رسلاً من قبلك إلى أممهم بمثل ما أرسلناك به
 إلى أمتك من الدعاء إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له ، وخلع الأنداد والأوثان ،
 فحسن لهم الشيطان ما كانوا عليه مقيمين من الكفر به وعبادة الأوثان ،
 فكذبوا رسلهم وردوا عليهم ما جاءوا به من عند ربهم ، وما كان ناصرهم فيما
 اختاروا إلا الشيطان وبئس الناصر والمعين ، ولهم فى الآخرة عذاب أليم حين ورودهم
 إلى ربهم ، إذ لا تنفعهم إذ ذاك ولاية الشيطان كما لم تنفعهم فى الدنيا .

ثم ذكر سبحانه أنه ما أهلك من أهلك ، إلا بعد أن أقام الحجة ، وأزاح
 العلة فقال :

(وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم
 يؤمنون) أى وما أنزلنا عليك كتابنا وما بعثناك به إلى عبادنا إلا لتبين لهم
 ما اختلفوا فيه من دين الله ، فيعرفوا الحق من الباطل ، وتقيم عليهم حجة الله التى
 بعثك بها ، وهو هدى للقلوب الضالة ، ورحمة لقوم يؤمنون به فيصدقون بما فيه ،
 ويقررون بما تضمنه من أمر الله ونهيه ويعملون به .

وخلاصة ذلك — إن هذا الكتاب هو الفاصل بين الناس فيما يتنازعون فيه ،
 وأنه الهادى لهم إلى سبيل الرشاد .

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩).

شرح المفردات

المراد بحياة الأرض: إنباتها الزرع والشجر وإخراجها الثمر، يسمعون: أى يسمعون سماع تدبر وفهم . قال الفراء والزجاج : النعم والأنعام واحد يذكر ويؤنث ، ولهذا تقول العرب هذه نعم وارد ، ورجحه ابن العربى فقال إنما يرجع التذكير إلى معنى الجمع والتأنيث إلى معنى الجماعة وقد جاء بالوجهين هنا وفى سورة المؤمنين ، والعبرة: الاعتبار والعظة ، والفرت: كثيف ما يبقى من الماء كقول فى الكرش والمعى ، خالص: أى مصفى من كل ما يصحبه من مواد أخرى ، سائغا: أى سهل المرور فى الخلق ، يقال ساغ الشراب فى الخلق وأساغه صاحبه قال تعالى: «وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ» والسكر: الخمر، والرزق الحسن: الخل والرُبُّ والتمر والزبيب ونحو ذلك ، وأوحى : ألهم وعلم، وبيوتنا: أى أوكارنا؛ وأصل البيت مأوى الإنسان واستعمل هنا فى الوكر الذى تبنيه النحل لتعسل فيه لما فيه من دقة الصنع وجميل الهندسة ، ويعرشون: أى يرفعون من الكروم والسقوف، والسبل: الطرق واحدها سبيل ، والذلل واحدها ذلول: أى

منقادة طائفة ، والشراب العسل ، مختلف ألوانه من أبيض إلى أصفر إلى أسود على حسب اختلاف المرعى .

المعنى الجملى

بعد أن وعد المؤمنين بجنات تجري من تحتها الأنهار ، وأوعد الكافرين بنار تلظى جزاء ما دنسوا به أنفسهم من الإشراك بربههم ونسبة البنات إليه وافترائهم عليه ما لم ينزل به سلطانا — عاد إلى ذكر دلائل التوحيد من قبل أنه قطب الرعى فى الدين الإسلامى وكل دين سماوى ، ويليه إثبات النبوات والبعث والجزاء ، فبين أنه أنزل المطر من السماء لتحيا به الأرض بعد موتها ، وثنى بإخراج اللبن من الأنعام ، وثالث باتخاذ الحنظل والخل والدبس من الأعناب والنخيل ، وربّع باخراج العسل من النحل وفيه شفاء للناس ، وقد بين أثناء ذلك كيف ألهم النحل بناء البيوت والبحث عن أرزاقها من كل فج .

الإيضاح

(والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون) نبه سبحانه عباده إلى الحجج الدالة على توحيده ، وأنه لا تنبغى الألوهية إلا له ، ولا تصلح العبادة لشيء سواه ، فبين أن ذلك المعبود هو الذى أنزل من السماء مطرا ، فأثبت به أنواعا مختلفة من النبات فى أرض ميتة يابسة ، لا زرع فيها ولا عشب ، إن فى ذلك الإحياء بعد الموت لدليلا واضحا ، وحجة قاطعة على وحدانيته تعالى وعلمه وقدرته لمن يسمع هذا القول سماع تدبر وفهم لما يسمع ، إذ لا عبادة يسمع الأذان ، فهو أشبه بسمع الحيوان .

وبعد أن ذكر نزول الماء من السحاب ذكر خروج اللبن من الضرع ، وفيه أكبر الأدلة على قدرة القادر فقال :

(وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين) أى وإن لكم أيها الناس لعظة فى الأنعام دالة على باهر قدرتنا ، وبديع صنعنا ، وواسع فضلنا ، ورحمتنا بعبادنا ، فإننا نسقيكم مما فى بطونها من اللبن الخالص من شائبات المواد الغريبة ، السهل التناول ، اللذيذ الطعم ، وهو متولد من بين فرث ودم .

فان الله جلت قدرته جعل الحيوان يتغذى بما يأكل من نبات ولحوم ونحوها حتى إذا هضم الماء كحول تحول بإذنه تعالى إلى عصارة نافعة للجسم وفضلات تطرد إلى الخارج ، ومن هذه العصارة يتكون الدم الذى يسرى فى عروق الجسم لحفظ الحياة وبعض هذا الدم يذهب إلى الغدد التى فى الضرع فتحولها إلى لبن ، فكان الصانع الحكيم جعلها مصنعا ومعملا لتحويل الدم إلى لبن ، وهكذا فى الجسم غدد أخرى كالغدد الأنفية للمخاط والغدد الدمعية للعين ، والغدد المنوية التى تحول الدم إلى مادة التلقيح .

وبعد أن ذكر اللبن وبين أنه جعله شرابا سائغا للناس ، ثلث بذكر ما يتخذ من الأشربة من ثمرات النخيل والأعناب فقال :

(ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا) أى ولستم أيضاً عبرة فيما نسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب مما تتخذونه خرا وخلا ودبسا (عسل التمر) وتمر .

روى عن ابن عباس أنه قال : السكر ما حرم من ثمرتيهما ، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما كالخل والزبيب (المربة) والتمر والزبيب ونحو ذلك .

(إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون) أى إن فى ذلك لآية باهرة لمن يستعملون عقولهم بالنظر والتأمل فى الآيات ويعتبرون بما يستخلص من العبر .

(وأوحى ربك إلى النحل) أى وألهم ربك النحل وألقى فى روعها ، وعلمها أعمالا يتخيل منها أنها ذوات عقول .

وقد تتبع علماء المواليد أحوالها وكتبوا فيها المؤلفات بكل اللغات ، وخصصوا لها مجلات تنشر أطوارها وأحوالها ، وقد وصلوا من ذلك إلى أمور :
(١) إنها تعيش جماعات كبيرة قد يصل عدد بعضها نحو خمسين ألف نحلة ، وتسكن كل جماعة منها في بيت خاص يسمى خلية .

(٢) إن كل خلية يكون فيها نحلة واحدة كبيرة تسمى الملكة أو العسب ، وهي أكبرهم جثة وأمرها نافذ فيهم ، وعدد يتراوح بين أربعائة نحلة وخمسةائة يسمى الذكور ، وعدد آخر من خمسة عشر ألفا إلى خمسين ألف نحلة ، ويسمى الشغالات أو العاملات .

(٣) تعيش هذه الفصائل الثلاث في كل خلية عيشة تعاونية على أدق ما يكون نظاما ، فعلى الملكة وحدها وضع البيض الذى يخرج منه نحل الخلية كلها ، فهي أم النحل ، وعلى الذكور تلقيح الملكات وليس لها عمل آخر ، وعلى الشغالات خدمة الخلية وخدمة الملكات وخدمة الذكور ، فتنتقل في المزارع طوال النهار لجمع رحيق الأزهار ثم تعود إلى الخلية فتفرز عسلا يتغذى به سكان الخلية صغارا وكبارا ، وتفرز الشمع الذى تبني به بيوتها سداسية الشكل تخزن في بعضها العسل ، وفي بعض آخر منها تربى صغار النحل ، ولا يمكن المهندس الخاذق أن يبنى مثل هذه البيوت حتى يستعين بالآلات كالمسطرة والفرجار (البرجل) . قال الجوهري : ألهمها الله أن تبني بيوتها على شكل سدس حتى لا يحصل فيه خلل ولا فرجة ضائعة ، كما عليها أن تنظف الخلية وتحقق بأجنحتها لتساعد على تهويتها ، وعليها أيضا الدفاع عن الملكة وحراستها من الأعداء كالنمل والزناير وبعض الطيور ، ثم فسر سبحانه ما أوحى به إليها بقوله :

(أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون) أى اجعلى لك بيوتا في الجبال تأوين إليها ، أو في الشجر أو فيما يعرش الناس ويننون من البيوت والسقف والكروم ونحوها .

(ثم كلّى من كل الثمرات) أى ثم كلّى أيتها النحل من كل ثمرة تشتهينها ،
حلوة أو مرّة أو بين ذلك .

(فأسلكى سبل ربك ذللاً) أى فأسلكى الطرق التى أهلكك الله أن تسلكيها ،
وتدخل فيها لطلب الثمار ولا تعسر عليك وإن توعرت ، ولا تضلّ عن العودة منها
وإن بعدت .

وبعد أن خاطب النحل أخبر الناس بفوائدها لأن النعمة لأجلهم فقال :
(يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه) أى يخرج من بطونها عسل مختلف
الألوان ، فتارة يكون أبيض وأخرى أصفر ، وحيناً أحمر على حسب اختلاف المرعى .
(فيه شفاء للناس) لأنه نافع لكثير من الأمراض ، وكثيراً ما يدخل فى تركيب
العقاقير والأدوية .

روى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى
الله عليه وسلم فقال : إن أخى استطلق بطنه فقال له رسول الله (اسقه عسلاً)
فسقاه عسلاً ، ثم جاء فقال يارسول الله : سقيته عسلاً فما زاده إلا استطلاقاً ، قال
(اذهب فاسقه عسلاً) فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء فقال يارسول الله ما زاده ذلك
إلا استطلاقاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (صدق الله وكذب بطن أخيك
اذهب فاسقه عسلاً) فذهب فسقاه عسلاً فبرىء .

وعلل هذا بعض الأطباء الماضين قال : كان لدى هذا الرجل فضلات فى
المعدة ، فلما سقاه عسلاً تحملت فأسرعت إلى الخروج فزاد إسهاله ، فاعتقد الأعرابى
أن هذا يضره وهو فائدة لأخيه ، ثم سقاه فازداد التحلل والدفع ، وكلما سقاه حدث
مثل هذا حتى اندفعت الفضلات الفاسدة المفسدة بالبدن ، فاستمسك بطنه ، وصاح
مزاجه ، وزالت الآلام والأسقام بإرشاده عليه السلام .

وروى البخارى عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الشفاء في ثلاثة : في شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو كية بنار ، وأنهى أمتي عن الكي » .

وقد أثبت الطب الحديث ما للعسل من فوائد أدع الكلام فيها ليتولى شرحها النطاسي الكبير المرحوم عبد العزيز إسماعيل باشا قال في كتابه : [الإسلام والطب الحديث] .

ما أصدق الآية الكريمة ! « فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ » إن التركيب الكيماوي للعسل كما يلي :

من ٢٥ — ٤٠ ٪ دكتروز (جلوكوز) .

» ٣٠ — ٤٥ ٪ ليفيولوز .

» ١٥ — ٢٥ ٪ ماء .

والجلوكوز الموجود فيه بنسبة أكثر من أى غذاء آخر ، وهو سلاح الطبيب في أغلب الأمراض واستعماله في ازدياد مستمر بتقدم الطب ، فيعطى بالقم وبالحقن الشرجية وتحت الجلد وفي الوريد ، ويعطى بصفته مقويا ومغذيا ، وضد التسمم الناشئ من مواد خارجية كالزرنبيخ والزئبق والذهب والكلورفرم والمورفين الخ ، وضد التسمم الناشئ من أمراض أعضاء الجسم مثل التسمم البولي والناشئ من أمراض الكبد ، والاضطرابات المعوية والمعدية ، وضد التسمم في الحميات ، مثل التيفويد والالتهاب الرئوي والسحائ الخن والحصبية ، وفي حالات ضعف القلب ، وحالات الذبحة الصدرية ، وبصفة خاصة في الارتشاحات العمومية الناشئة من التهابات الكلى الحادة وفي احتقان المخ وفي الأورام الخفية الخ .

وقد يقال : وما أهمية هذه الآية مع أن كل أنواع الغذاء لها فوائد ، وقد ذكر العسل لأنه غذاء لذيذ الطعم وبطريق المصادفة .

فالحقيقة هي أن أنواع الغذاء الأخرى لا تستعمل كعلاج إلا في ندر من الأمراض الناشئة عن نقصها في الغذاء فقط ، وهذه الفواكه التي تشبه العسل في الطعم فإن

السكر الذى فيها هو سكر القصب أو أنواع أخرى ، وليس فيها إلا نسبة ضئيلة من (الجلو كوز) الذى هو أهم عناصر العسل .

وإذا علمنا أن الجلو كوز يستعمل مع الأنسولين حتى فى حالة التسمم الناشئ عن مرض البول السكرى — علمنا مقدار فوائده ، وأن القرآن الكريم لم يذكره بطريق المصادفة ، ولكنه تنزيل من خلق الإنسان والنحل ، وعلم كلا منهما علاقته بالآخر اه .

كيف يتكون العسل

تمتص الشغالة رحيق الأزهار ، فينزله ويجمع فى كيس فى بطنها ، وهناك يمتزج بعصارة خاصة فيتحول إلى عسل ، والله در أبى العلاء إذ يقول :

والنحل يحنى المر من زهر الربا فيعود شهدا فى طريق رضابه

ثم تعود النحلة إلى الخلية فتفرز العسل من فيها فى البيوت الشمعية التى خصصت بتخزين العسل ، وكلما امتلأت بيت منها غطاه النحل بطبقة من الشمع وانتقل إلى بيت آخر .

شمع النحل

تفرز الشغالة صفحات رقيقة صلبة من الشمع تخرجها من بين حلقات بطنها ، ثم تمضعها فيها حتى تلين ، ويسهل تشكائها على حسب ما تريد ، فتستعملها فى بناء بيوتها السداسية الشكل .

فوائد النحل

(١) نأخذ منها العسل الذى هو غذاء لذيذ الطعم يحوى مقداراً كبيراً من المواد المفيدة للجسم .

(٢) نأخذ منها الشمع الذى تصنع منه شموع الإضاءة .

(٣) تساعد على تلقيح الأزهار فتكون سبباً في زيادة الثمار وجودة نوعها .
 (إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) أى إن في إخراج الله من بطون النحل
 الشراب المختلف الألوان وهو شفاء للناس — لدلالة واضحة على أن من سنخر
 النحل ، وهدهاها لأكل الثمرات التى تأكلها ، وأتخذها البيوت فى الجبال والشجر
 والعروش ، وأخرج من بطونها ما أخرج مما فيه شفاء للناس ، على أنه هو الواحد
 القهار الذى ليس كمثل شئ ، وأنه لا ينبغى أن يكون له شريك ، ولا تصح
 الألوهة إلا له .

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ
 لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) وَاللَّهُ فَضَّلَ
 بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ، فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادَى رِزْقِهِمْ عَلَى
 مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ، أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) وَاللَّهُ جَعَلَ
 لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنًا وَحَفْدةً
 وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ
 يَكْفُرُونَ (٧٢)

شرح المفردات

أردل العمر : أردؤه وأخسه؛ يقال رذل الشئ يرذل رذالة وأردله غيره قال تعالى
 حكاية عما قاله قوم شعيب له : « وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ » والحفدة : أولاد الأولاد على
 ما روى عن الحسن والأزهرى وواحدهم حافد ككتبة وكاتب: من الحفد وهو الحفدة
 فى الخدمة والعمل ؛ يقال منه حفد يحفد حفدا وحفودا وحفدانا : إذا أسرع كما جاع

في القنوت (وإليك نسعى ونحفد) والطيبات : اللذائذ ، والمراد بالباطل : منفعة الأصنام وبركتها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عجائب أحوال الحيوان ، وما فيها من نعمة للإنسان ؛ كالأنعام التى يتخذ من ضرعها اللبن والنحل التى يشتار منها العسل ويؤخذ منها الشمع للإضاءة - أردف ذلك ببيان أحوال الناس ، فذكر مراتب أعمارهم وأن منهم من يموت وهو صغير ، ومنهم من يُعمر حتى يصل إلى أرذل العمر ويصير نساء لا يحفظ شيئا ، وفى ذلك دليل على كمال قدرة الله ووحدايته ، ثم تلى بذكر أعمال أخرى لهم وهى تفضيل بعضهم على بعض فى الرزق ، فقد يرى أكيس الناس وأكثرهم عقلا وفهما يفتى عمره فى طلب القليل من الدنيا وقل أن يتيسر له ، بينما يرى أقل الناس علما وفهما تتفتح له أبواب السماء ويأتيه الرزق من كل صوب ، وذلك دليل على أن الأرزاق قد قسمها الخلاق العليم كما قال : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وقال الشافعى رحمه الله :

ومن الدليل على القضاء وكونه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحق
ثم ثلث بذكر نعمة نالها عليهم ، إذ جعل لهم أزواجا من جنسهم وجعل لهم من هذه الأزواج بنين وحفدة ورزقهم المظعومات الطيبة من النبات كالثمار والحبوب والأشربة ، أو من الحيوان على اختلاف أنواعها .

الإيضاح

(والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر) أى والله أوجدكم ولم تكونوا شيئا أنتم ولا آلهتكم التى تعبدونها من دون الله ، ثم وقت أعماركم بأجال مختلفة فمنكم من تعجل وفاته ، ومنكم من يهرم ويصير إلى أرذل العمر وأخسه ، فتنقص قواه

وتفسد حواسه ويكون في عقله وقوته كالطفل كما قال : « وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ » .

أخرج البخارى وابن مردويه عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في دعائه : « أعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة الحيا والممات » وثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ بالله أن يرد إلى أرذل العمر ، ونقل عن علي كرم الله وجهه أن أرذل العمر خمس وسبعون سنة ، وهذا ليس بالمطرده ولا بالكثير .

(لكي لا يعلم من بعد علم شيئا) أى إنمارده إلى أرذل العمر ليعود جاهلا كما كان حين طفولته وصباه لا يعلم شيئا مما كان يعلمه في شبابه ، لأن الكبر قد أضعف عقله وأنساه ، فلا يعلم شيئا مما كان يعلم ، وقد انسلخ من عقله بعد أن كان كامل العقل . وخلاصة ذلك — إنه يكون نساء ، فإذا كسب علما في شيء لم يلبث أن ينساه ويذول من ساعته ، فيقول لك من هذا ؟ فتقول له هذا فلان ، فلا يملك إلا هنيئة ثم يسألك عنه مرة أخرى .

(إن الله عليم قدير) أى إن الله عليم بكل شيء ، فيعلم وجه الحكمة في الخلق والتوفى والرد إلى أرذل العمر ، ولا ينسى شيئا من ذلك ، وهو قدير على كل شيء . فلا يعجزه شيء أراد .

ومجمل القول — إن ما يعرض في الهرم من ضعف القوة والقدرة وانتفاء العلم يتنزه عن مثله المولى جل شأنه ، فهو كامل العلم تام القدرة لا يتغير شيء منهما بمرور الأزمنة كما يتغير علم البشر وقدرتهم .

ولما ذكر سبحانه تفاوت الناس في الأعمار ذكر تفاوتهم في الأرزاق فقال : (والله فضل بعضكم على بعض في الرزق) أى والله تعالى جعلكم متفاوتين في أرزاقكم ، فمنكم الغنى ومنكم الفقير ، ومنكم المملوك ومنكم المالك ، وأعطاكم من الرزق أكثر مما أعطى ممالككم ، ولم يجعل ذلك بحسن الحيلة وفضل العقل ، فكثيرا

ما نرى الحَوْلَ القَلْبَ لا يحصل إلا على الكفاف من الرزق بعد الجهد الجهد ، بينما نرى الأحق يتقلب فى نعيم العيش وزخرف الدنيا ، والله درّ سفیان بن عیینة إذ يقول :

كم من قوى قوى فى قلبه مهذب الرأى عنه الرزق منحرف
ومن ضعيف ضعيف العقل مختلط كأنه من خليج البحر يعترف

(فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء) أى
فما الذين فضلوا بالرزق وهم الموالى بجاعلى رزقهم من الأموال وغيرها - شركة بينهم
وبين ممالكهم بحيث يساؤونهم فى التصرف فيها ويشاركونهم فى تدبيرها .

والخلاصة — إن الله جعلكم متفاوتين فى الرزق ، فرزقكم أكثر مما رزق
ممالككم وهم بشر مثلكم وإخوانكم ، فكان ينبغى أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم
وتتساووا وإياهم فى اللبس والمطعم والمسكن ، لكنكم لم ترضوا بهذه المساواة مع أنهم
أمثالكم فى البشرية والخلقية لله عز وجل ، فما بالكم تشركون بالله فيما يليق إلا
به من الألوهية والعبودية بعض عباده بل أخس مخلوقاته .

وهذا مثل ضربه الله سبحانه لبيان قبح ما فعله المشركون من عبادة الأصنام
والأوثان تقريرا لهم .

ونحو الآية قوله : « هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا
رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ؟ » .

(أفبعمة الله يحددون ؟) إذ أضافوا بعض تلك النعم الفائضة عليهم من مولاهم
إلى شركائهم وجعلوها أنداد الله ، وهى لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا .

ثم ذكر ضريا آخر من ضروب نعمه على عباده تنبيهها إلى جليل إنعامه بمثل
تلك النعم التى هى زينة الحياة فقال :

(والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة)
أى والله سبحانه جعل لكم أزواجا من جنسكم تأسئون بهن وتقوم بهن جميع مصالحكم

وتدبير معاشكم ، وجعل لكم منهن بنين وحفدة أى أولاد أولاد يكونون زهرة الحياة الدنيا وزينتها ، وبهم التفاخر والتناصر والمساعدة لدى البأساء والضرراء .

(ورزقكم من الطيبات) أى ورزقكم من لذيذ المطاعم والمشارب وجميل الملابس والمساكن مما تتذوقون فيه إلى أقصى الحدود وأبلغ الغايات .

(أقبالباطل يؤمنون) أى إنهم بعد هذا البيان الواضح والدليل الظاهر يوقنون بأن الأصنام شركاء لهم تنفعهم وتضرهم وتشفع لهم عنده ، وأن البحائر والسوائب والوسائل حرام عليهم كما حرمها لهم أولياء الشيطان .

وليس بعد هذا تأنيب وتوبيخ ، إذ ساقه مساق ما فيه الشك وطلب الجواب منهم عنه .

(وبنعمة الله هم يكفرون؟) أى وبهذه النعم المتظاهرة عليهم من ربهم يكفرون فيضيفونها إلى غير الخالق وينسبونها إلى غير موجد لها من صنم أو وثن؟ .

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ، إِنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى
شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ، هَلْ
يَسْتَوُونَ؟ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا
رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا
يُوجَّهْ لَا يَنْتَ بِخَيْرٍ ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦)

شرح المفردات

رزق السماء : هو المطر ، ورزق الأرض : النبات والثمار التى تخرج منها ، فلا تضرىوا لله الأمثال : أى لا تجعلوا له الأنداد والنظراء فهو كقوله : « فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا » وضرب المثل للشيء : ذكر الشبيه له ليوضح حاله المبهمة ويزيل ما عارض من الشك فى أمره ، والبكم إما ناشئ من صمم خلق وإما لسبب عارض ولا علة فى أذنيه فهو يسمع لكن لسانه معتل لا يطبق الكلام ، فكل من ولد غير سميع فهو أبكم ، لأن الكلام بعد السماع ولا سماع له ، وليس كل أبكم يكون أصم صمما طبيعيا ، فإن بعض البكم لا يكونون صما ، والكَلْ : الغليظ الثقيل من قولهم كَلَّتِ السكينة إذا غلظت شفرتها فلم تقطع ، وكل عن الأمر : ثقل عليه فلم يستطع عمله يوجهه : أى يرسله فى وجه معين من الطريق ، يقال وجهته إلى موضع كذا فتوجه إليه ، على صراط مستقيم : أى طريق عادل غير جائر .

المعنى الجملى

بعد أن بين عزت قدرته دلائل التوحيد البيان الشافى فيما سلف - أردف ذلك بالرد على عابدى الأوثان والأصنام ، فضرب لذلك مثلين يؤكد بهما إبطال عبادتهما : أولهما العبد المملوك الذى لا يقدر على شيء ، والحر الكريم الغنى الكثير الإفاق سرا وجهرا ، ولفت النظر إلى أنهما هل يكونان فى نظر العقل سواء مع تساويهما فى الخلق والصورة البشرية ؟ وإذا امتنع ذلك فكيف ينبغى أن يسوى بين القادر على الرزق والإفضال ، والأصنام التى لا تملك ولا تقدر على النفع والضرر . والثانى مثل رجلين أحدهما أبكم عاجز لا يقدر على تحصيل خير وهو عبء ثقيل على سيده ، وثانيهما حوّل قلب ناطق كامل القدرة ، أيسويان لدى أرباب الفكر مع استوائهما فى البشرية ؟ وإذا فكيف يدور بخلد عاقل مساواة الجاد برب العالمين فى الألوهية والعبادة ؟

قال ابن عباس نزلت هذه الآية في عثمان بن عفان ومولى له كافر يسمى أسيد ابن أبي العاص كان يكره الإسلام وكان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المئونة وكان الآخر ينهيه عن الصدقة والمعروف .

الإيضاح

(ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون) أى ويعبد هؤلاء المشركون بالله من دونه أو ثانا لا يملك لهم رزقا من السموات ، فلا تقدر على إنزال القطر منها لإحياء الميت من الأرضين ، ولا يملك لهم رزقا منها فلا تقدر على إخراج شيء من نباتها ولا ثمارها ، ولا على شيء مما ذكر في سالف الآيات مما أنعم الله به على عباده ، ولا يستطيعون أن يملكوا ذلك ولا يمكنهم .

وفائدة قوله (ولا يستطيعون) أن من لا يملك شيئا قد يكون فى استطاعته أن يتملك بوجه ، فبين بذلك أن هذه الأصنام لا تملك وليس فى استطاعتها تحصيل الملك . وبعد أن بين ضعفها وعجزها رتب على ذلك ما هو كالنتيجة له فقال : (فلا تضربوا لله الأمثال) أى فلا تجعلوا لله مثلا ولا تشبهوه بخلقه ، فإنه لا مثل له ولا شبيه .

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال فى الآية : أى لا تجعلوا معى إلها غيرى فإنه لا إله غيرى .

ثم هددهم على عظيم جرمهم وكبير ما اجتروا من الكفر والمعاصى فقال : (إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون) أى إن الله يعلم كنه ما تفعلون من الاجرام وعظيم الآثام وهو معاقبكم عليه أشد العقاب ، وأنتم لا تعلمون حقيقته ولا مقدار عقابه ، ومن ثم صدر ذلك منكم وتحاسرتم عليه ونسبتم إلى الأصنام ما لم يصدر منها ولا هى منه فى قليل ولا كثير .

وبعد أن نهام عن الإشراف عقبه بمثل يكشف عن فساد ما ارتكبه من الحماقات والجهالات فقال :

(ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون) أى إن مثلكم فى إشرافكم بالله الأوثان مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف ، وحر مالك ما لا ينفق منه كيف يشاء ويتصرف فيه كما يريد ، والفطرة الأولى تشهد بأنهما ليسا سواء فى التجارة والاحترام مع استوائهما فى الخلق والصورة — فكذلك لا ينبغي لعقل أن يسوى بين الإله القادر على الرزق والإفضال والأصنام التى لا تملك ولا تقدر على شيء البتة .

ثم ذكر ما هو كالنتيجة لما سلف فقال :

(الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) أى الحمد الكامل لله خالصا دون ما تدعون من دونه من الأوثان ، فإياه فاحمدوا دونها ، ما الأمر كما تفعلون ولا القول كما تقولون ، فليس للأوثان عندكم من يد ولا معروف فتحمد عليه ، إنما الحمد لله ولكن أكثر هؤلاء الكفار الذين يعبدونها لا يعلمون أن ذلك كذلك ، فهم بجهلهم بما يأتون وما يذرون يجعلونها لله شركاء فى العبادة والحمد .

ثم ضرب مثلا آخر يدل على ما يدل عليه المثل السابق على وجه أظهر وأوضح فقال :

(وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم؟) أى ضرب الله مثلا لنفسه والآلهة التى يعبدونها من دونه مثل رجلين أحدهما أخرس أصم لا يفهم ولا يفهم ، لا يقدر على شيء مما يتعلق بنفسه أو بغيره لسوء فهمه وإدراكه ، وهو عيال على من يعوله ويلى أمره ، حينما يرسله مولاه فى أمر لا يأت

ينجح ولا كفاية مهم — وثانيهما رجل سليم الخواس عاقل ينفع نفسه وينفع غيره ،
 يأمر الناس بالعدل وهو على سيرة صالحة ودين قوي — هل يستويان ؟
 كذلك الصنم لا يسمع شيئاً ولا ينطق لأنه إما خشب منحوت وإما نحاس
 مصنوع لا يقدر على نفع من خدمه ولا دفع ضرر عنه ، وهو كل على من يعبده ،
 يحتاج أن يحمله ويضعه ويخدمه ، وهو لا يعقل ما يقال له فيأتمر بالأمر ، ولا ينطق
 فيأمر وينهى ، هل يستوى هو ومن يأمر بالحق ويدعو إليه وهو الله الواحد القهار
 الذي يدعو عباده إلى توحيده وطاعته ! وهو مع أمره بالعدل على طريق مستقيم
 لا يعوج عن الحق ولا يزول عنه .

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ
 أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ
 بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ
 وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرْوُوا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ
 فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
 يُؤْمِنُونَ (٧٩)

شرح المفردات

الساعة: الوقت الذي تقوم فيه القيامة ، سميت بذلك لأنها تفجأ الإنسان في ساعة ما
 خيموت الخلق بصيحة واحدة ، ولمح : البصر رجع الطرف من أعلى الحدة إلى
 أسفلها ، والأفئدة واحدها فؤاد وهي القلوب التي هيأها الله للفهم وإصلاح البدن ،
 والجو : الهواء بين الأرض والسماء .

المعنى الجملى

بعد أن مثل سبحانه نفسه بمن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ، ومستحيل أن يكون كذلك إلا إذا كان كامل العلم والقدرة — أردف ذلك بما يدل على كمال علمه ، فأبان أن العلم بغيوب السموات والأرض ليس إلا له ، وبما يدل على كمال قدرته ، فذكر أن قيام الساعة فى السرعة كلبح البصر أو أقرب ، ثم عاد إلى ذكر الدلائل على توحيده وأنه الفاعل المختار ، فذكر منها خلق الإنسان فى أطواره المختلفة ، ثم الطير المسخر بين السماء والأرض ، وكيف جعله يطير بجناحين فى جو السماء ما يسكه إلا هو بكامل قدرته .

الإيضاح

(والله غيب السموات والأرض) أى والله علم ما غاب عن أبصاركم فى السموات والأرض مما لا اطلاع لأحد عليه إلا أن يطلعه الله ، والمراد به جميع الأمور الغائبة عن علوم الخلقين التى لا سبيل إلى إدراكها حسا ولا إلى فهمها عقلا .

(وما أمر الساعة إلا كلبح البصر أو هو أقرب) أى وما شأنها فى سرعة الحجب إلا كرجع الطرف من أعلى الحديقة إلى أسفلها ، أو هو أقرب من هذا وأسرع ، لأنه إنما يكون بقول (كن فيكون) .

ونحو الآية قوله « وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » أى فيكون ما يريد كطرف العين ، وقريب من هذا قوله « مَا خَلَقْكُمْ وَلَا يَعْسُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ » .

والخلاصة — إن قيام القيامة ومجيء الساعة التى ينتشر فيها الخلق للوقوف فى موقف الحساب — كنظرة من البصر وطرفة من العين فى السرعة .

وخص قيام الساعة من بين الغيوب ، لأنه قد كثرت فيه الماراة فى جميع

الأزمنة والعصور، ولدى كثير من الأمم، فأنكره كثير من البشر وجعلوه مما لا يدخل في باب الممكنات .

ثم ذكر ما هو كالبرهان على إمكان حدوثها وسرعة وقوعها فقال :
(إن الله على كل شيء قدير) أى إن الله قادر على ما يشاء ، لا يمتنع عليه شيء أرادته ، فهو قادر على إقامتها في أقرب من لمح البصر .

ثم ذكر سبحانه منته على عباده بإخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً ، ثم رزقهم السمع والأبصار والأفئدة فقال :

(والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) أى والله جعلكم تعلمون ما لا تعلمون بعد أن أخرجكم من بطون أمهاتكم ، فرزقكم عقولاً تفقهون بها وتميزون الخير من الشر والهدى من الضلال والخطأ من الصواب ، وجعل لكم السمع الذى تسمعون به الأصوات ، يفقه بعضكم عن بعض ما تتحاورون به بينهم ، والأبصار التى تبصرون بها الأشخاص فتتعارفون بها وتميزون بعضها من بعض ، والأشياء التى تحتاجون إليها فى هذه الحياة ، فتعرفون السبل وتسلكونها للسعى على الأرزاق والسلع لتختاروا الجيد وتتركوا الردى ، وهكذا جميع مرافق الحياة ووجوهها .

(لعلكم تشكرون) أى رجاء أن تشكروه باستعمال نعمه فيما خلقت لأجله ، وتتمكنوا بها من عبادته تعالى ، وتستعينوا بكل جارحة وعضو على طاعته .

روى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله تعالى : من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى شيء أفضل من أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطيته ، ولئن دعانى لأجيبته ، ولئن استعاذنى لأعيذته ، وما ترددت فى شيء أنا فاعله ترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت

وأكره مساءته ، ولا بد له منه « أى إن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عز وجل ، فلا يسمع إلا لله ، ولا يبصر إلا لله أى لما شرعه الله له ، ولا يبطش ولا يمشی إلا فى طاعته عز وجل ، مستعيناً به فى ذلك كله .

ثم نبه عباده إلى دليل آخر على كمال قدرته فقال :

(ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله) أى ألم ينظروا إلى الطير مذللات فى الهواء بين السماء والأرض ما يمسكهن فى الجوعن الوقوع إلا الله عز وجل بقدرته الواسعة ، وقد كان فى ثقل جسدها ، ورقة الهواء ما يقتضى وقوعها إذ لا علاقة من فوقها ، ولا دعامة من تحتها ، ولو سلبها ما أعطاها من قوة الطيران لم تقدر على النهوض ارتفاعاً ، وقد كان العلماء قديماً يعلمون تخلخل الهواء فى الطبقات العالية فى الجو وهى نظرية لم تدرس فى العلوم الطبيعية إلا حديثاً ، فقد أثرعن كعب الأحبار أنه قال : إن الطير يرتفع فى الجواثنى عشر ميلاً ولا يرتفع فوق ذلك .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) أى إن فى ذلك التسخير فى الجو والإمساك فيه — لدلالات على أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنه لاحظ للأوثان والأصنام فى الألوهية — لمن يؤمن بالله ، ويقر بوجودان ما تعيننه أبصارهم ، وتحسه حواسهم .

وخصص هذه الآيات بالمؤمنين ، لأنهم هم المنتفعون بها ، وإن كانت هى آيات لجميع العقلاء .

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارُهَا وَأَشْعَارُهَا أَتَانَا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكَنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَائِلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ ،

وَسَرَّابِيلَ تَقِيكُمُ بِأَسْكَكُمْ ، كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لِمَلَأَكُمْ
تُسَلِّمُونَ (٨١) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ
اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)

شرح المفردات

سكننا أى مسكننا ، والظمن (بالسكون والفتح) السير فى البادية لنُجْمَةِ أو طلب
ماء أو مرتع ، والأصواف : للضأن ، والأوبار : للابل ، والأشعار : للعمر ، والأثاث :
متاع البيت كالفرش والثياب وغيرها ، ولا واحد له من لفظه ، والمتاع : ما يتمتع
وينتفع به فى المتجر والمعاش ، إلى حين : أى إلى انقضاء آجالكم ، والظلال : ما يستظل
به من الغمام والشجر والجبال وغيرها ، والأكنان واحدها كن : وهو الغار ونحوه
فى الجبل ، والسراييل واحدها سربال : وهو القميص من القطن والكتان والصوف
وغیرها ، وسراييل الحرب الجواشن والدروع ، والبأس : الشدة ، ويراد به هنا الحرب.

المعنى الجملى

بعد أن أقام سبحانه الأدلة على توحيده . قفى على ذلك يذكر ما أنعم به على
عباده ، فجعل لهم بيوتا يأوون إليها وتكون سكننا لهم ، وجعل لهم من جلود الأنعام
بيوتا يستخفون حملها فى أسفارهم ، ويجعلونها خياما فى السفر والحضر ، وجعل لهم
فى الجبال الحصون والمعازل ، وجعل لهم الثياب التى تقيهم الحر ، والدروع والجواشن
من الحديد لثقى بعضهم أذى بعض فى الحرب .

وقصارى هذا — إنه امتن على عباده ، فبدأ بما يخص المقيمين بقوله : وجعل
لكم من بيوتكم سكننا ، ثم بما يخص المسافرين منهم من لهم قدرة على ضرب الخيام
بقوله : وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا ، ثم بمن لا قدرة لهم على ذلك ولا يأويهم

إلا الظلال بقوله ، وجعل لكم مما خلق ظلالا ، ثم بما لا يد منه لكل أحد بقوله :
وجعل لكم سرايل الخ ، ثم بما لا غنى عنه فى الحروب بقوله : وسرايل
تقيمكم بأسكم .

الايضاح

(والله جعل لكم من بيوتكم سكنا) أى والله الذى جعل لكم من بيوتكم التى
هى من الحجر والمدر مسكنا تقيمون فيه وأنتم فى الحضر .

(وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم)
أى وجعل لكم قبابا وفساطيط من شعر الأنعام وأصوافها وأوبارها ، تستخفون حملها
يوم ترحالكم من دوركم وبلادكم وحين إقامتكم بها .

(ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين) أى وجعل لكم من
أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز أثاثا لبيوتكم تكسسون به وتستعملونه
فى الغطاء والفرش ، ومتاعا من مال وتجارة إلى أجل مسمى ، وهو حين
انقضاء آجالكم .

(والله جعل لكم مما خلق ظلالا) أى ومن نعمه تعالى عليكم أن جعل لكم
مما خلق من الأشجار وغيرها ظلالا تستظلون بها من شديد الحر .

(وجعل لكم من الجبال أكنانا) أى وجعل لكم من الجبال مواضع تستكنون
فيها كالغارات والكهوف ونحوها .

(وجعل لكم سرايل تقيمكم الحر) أى وجعل لكم ثيابا من القطن والكتان
والصوف ونحوها تقيمكم الحر الشديد الذى فى بلادكم وهو مما يذيب دماغ الضب حين
هارة القيظ .

(وسرايل تقيمكم بأسكم) أى وجعل لكم دروعا وجواشن تقيمكم بأس السلاح
وأذاه حين الحرب وحين يتقدم القرن إلى قرنه للمصاولة والطعن والضرب والرمى بالنبال .

تنبيه — لما كانت بلاد العرب شديدة الحر وحاجتهم إلى الظل ألزم ذكر هذا في معرض النعم العظيمة ، إلى أن ما يبق من الحريق من البرد أيضا فكان ذكر أحدهما مغنيا عن ذكر الآخر ، قال الشهاب الخفاجي في الريحانة : في الآية نكتة لطيفة لم ينهوا عليها وهي أنه إنما اقتصر على الحر لأنه أهم هنا لما عرف من غلبة الحر على ديار العرب ، ثم إن ما يبق من الحر يحصل به برودة في الهواء في الجملة ، فوقاية الحر إنما هي لتحصيل البرد ، وهذا فيه من اللطف ما هو اللطف من النسيم ، فله در التنزيل فكم فيه من أسرار لا تنهاها .

(كذلك يتم نعمته عليكم) أى كما خلق هذه الأشياء لكم وأنعم بها عليكم ، يتم نعمة الدنيا والدين عليكم ويجعلكم ملوكا وأمرأا فيما تفتحون من البلاد والأصقاع ويجعل رائدكم فيما تعملون وجه الله وإصلاح الأمم والشعوب كما قال : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ » .

(لعلمكم تسامون) أى توقعا للنظر فيما أسبغ عليكم من النعم ، فتعرفون حق المنعم بها فتؤمنون به وحده وتذرون ما أنتم به مشركون فتسلمون من عذابه ، فإن العاقل إذا أسدى إليه المعروف شكر من أنعم به عليه كما قال المتنبي :

وقيدت نفسى فى ذراك محبة ومن وجد الإحسان قيدا تقيدا

وبعد أن عدد ما أنعم به عليهم من النعم ذكر ما يتبع معهم إذا هم أصبروا على عنادهم واستكبارهم ولم تنفعهم الذكرى فقال :

(فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين) أى فإن استمروا على إعراضهم ولم يقبلوا ما ألقى إليهم من البينات فلا يضيرك ذلك ، ولا تبضع نفسك عليهم أسى وحسرة ، فإنك قد أديت رسالتك كاملة غير منقوصة ، وما هى إلا البلاغ الموضح لمقاصد الدين وبيان أسرار وحكمه ، وقد فعلته بما لا مزيد عليه .

وجملة القول — إنهم إن أعرضوا وتولوا فلست بقادر على خلق الإيمان فى قلوبهم فإنما عليك البلاغ فحسب .

ثم بين أن سبب هذا التولى والإعراض لم يكن الجهل بهذه النعم بل كان العتو والاستكبار والإنكار لها فقال :

(يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) أى إنهم يعرفون أن هذه النعم كلها من الله ثم هم ينكرونها بأفعالهم ، إذ لم يخصوا النعم بها بالعبادة والشكر ، بل شكروا غيره معه ، إذ قالوا إن هذه النعم إنما حصلت بشفاعاة هذه الأصنام .

(وأكثرهم الكافرون) أى إن أكثرهم جاحد معاند يعلم صدق الرسول ولا يؤمن به عتوا واستكبارا ، وقليل منهم كان يجهل صدقه ولم يظهر له كونه نبيا حقا من عند الله ، لأنه لم ينظر فى الأدلة النظر الصحيح الذى يؤدى إلى الغاية ، أو لم يعرف الحق لنقص فى العقل فهو لا يسلك سبيله ، أو لم يصل حد التكليف فلا تقوم عليه حجة .

وهذا من صادق أحكام القرآن على الأمم والشعوب ، فهو لا يرسل القول إرسالاً بل يزنه بميزان الحقيقة الواقعة التى لا تتجاف الصواب وليس فيها جور ولا ظلم .

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٥) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا

عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ
تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)

شرح المفردات

الامة : الجيل من الناس ، وشهيد كل امة نبيها ، ثم لا يؤذن للذين كفروا : أى
إنهم يستأذنون فلا يؤذن لهم ، ويقال استعته وأعتبه : إذا رضى عنه ، قال الخليل :
العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموحدة ؛ وعاتبه معاتبه وعتابا وأعتبه : سره بعد
ماساءه ، ينظرون : أى يمهلون ويؤخرون ، والشركاء : الأصنام والأوثان والشياطين
والملائكة ، وتدعو : نعبد ، والسلم : الاستسلام والانقياد ، وضل : ضاع وبطل
والمراد بهؤلاء أئمة الحاضر منهم عصر التنزيل وغيرهم إلى يوم القيامة ، وتبياننا : أى
بياننا لأمر الدين إماننا فيها أو بيان الرسول واستنباط العلماء المجتهدين فى كل عصر.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال هؤلاء المشركين وأنهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها - قفى على
ذلك بوعيدهم فذكر حالهم يوم القيامة ، وأنهم يكونون أذلاء لا يؤذن لهم فى الكلام
لتبيرة أنفسهم ولا يمهلون ، بل يؤخذون إلى العذاب بلا تأخير ، وإذا رأوا معبوداتهم
من الأصنام والأوثان والملائكة والآدميين قالوا هؤلاء معبوداتنا ، فكذبته تلك
المعبودات واستسلموا لربهم وانقادوا له وبطل ما كانوا يفترونه ، ثم ذكر ذلك اليوم
وهو له وما منح نبيه من الشرف العظيم وأنه أنزل عليه الكتاب ليبين للناس ما أشكل
عليهم من مصالح دينهم ودنياهم ، ويهديهم سواء السبيل وفيه البشرى للمؤمنين
بجنات النعيم .

الإيضاح

(ويوم نبعث من كل أمة شهيدا) أى وخوف أيها الرسول هؤلاء المشركين يوم نبعث من كل أمة شاهدا عليها بما أجابت داعى الله وهو رسولها الذى أرسل إليها ، إما بالإيمان وطاعة الله ، وإما بالكفر والعصيان .

(ثم لا يؤذن للذين كفروا) أى ثم لا يسمع كلام الكافرين بعد شهادة أنبيائهم ولا يلتفت إليه ، إذ فى تلك الشهادة ما يكفى للفصل فى أمرهم والقضاء عليهم ، والله عليم بما كانوا يفعلون ، ولكن فى تلك الشهادة تأنيب لهم وتوبيخ على ما اجتروا من الفسوق والعصيان والكفر بربههم الذى أنعم عليهم .

ونحو الآية قوله : « هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » .

(ولا هم يستعتبون) أى ولا يطلب منهم أن يزيلوا عتب ربههم أى غضبه بالتوبة وصالح العمل ، فالآخرة دار جزاء لدار عمل ، والرجوع إلى الدنيا مما لا يكون بحال .

(وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون) أى وإذا عاين هؤلاء الذين كذبوا وجحدوا نبوة الأنبياء وهم من كانوا على نهج قومك من المشركين - عذاب الله فلا ينجيهم منه شيء ، إذ لا يؤذن لهم بالاعتذار فيعتذرون ، فيخفف عنهم بهذا العذر الذى يدعون ، ولا يرجئون بالعقاب ، لأن وقت التوبة والإنابة قد فات ، وإنما ذاك وقت الجزاء على الأعمال : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

ونحو الآية قوله : « وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا » وقوله : « إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهُمْ تَغِيظًا وَزَفِيرًا ، وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ، لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا » ، الثبور : الهلاك .

ثم أخبر عن إلقاء المشركين تبعة أعمالهم على معبوداتهم فقال :

(وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك) أى وإذا رأى هؤلاء المشركون بالله يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دون الله من الأوثان والآلهة التى عبدوها - قالوا هؤلاء شركاؤنا فى الكفر بك ، والذين كنا ندعوهم آلهة من دونك ، وربما يكونون قد قالوا هذه المقالة طمعا فى توزيع العذاب بينهم ، أو إحالة الذنب على الشركاء تعللا بذلك واسترواحا مع كونهم يعلمون أن العذاب واقع بهم لا محالة ، ولكن الفريق يتعلق بكل ما تقع يده عليه .

ثم ذكر تبرأ آلهتهم منهم ، وهم أحوج ما يكونون إلى نصرتهم لو كانوا ينصرون .
(فأتقوا إليهم القول إنكم لكاذبون) أى قالت لهم الآلهة : كذبتُم ما نحن أمرناكم بعبادتنا ، ونحو الآية قوله : « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ، وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ » وقوله : « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ، كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » .

(وألقوا إلى الله يومئذ السلم) أى واستسلم العابد والمعبود لله ، فلا أحد إلا وهو سامع مطيع ، ونحو الآية قوله : « أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَا » أى ما أسمعهم وأبصرهم حينئذ ، وقوله : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا » وقوله : « وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ » أى خضعت واستسلمت .

(وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى وذهب عنهم ما كانوا يعبدونه افتراء على الله ، فلا ناصر ولا معين ولا شفيع ولا ولى مما كانوا يزعمونه فى الدنيا كما قال حكاية عنهم : « هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ » .

(الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا

يفسدون) أى الذين جحدوا نبوتك وكذبوك فيما جئتهم به من عند ربك ، وصدوا عن الإيمان بالله ورسوله من أرادهم ، زدناهم عذابا فوق عذابهم الذى يستحقونه بكفرهم ، بسبب استمرارهم على الإفساد بالصد عن سبيل الله .

وخلاصة ذلك — إنهم يعذبون عذابين: عذابا على الكفر ، وعذابا على الإضلال . وصد الناس عن اتباع الحق ، ونحو الآية قوله : (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ) أى وهم ينهون الناس عن اتباعه ، وهم يتعدون منه أيضا ، روى الحاكم والبيهقي وغيرهم عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن أهل النار إذا جزعوا من حرها استغاثوا بضحضاح فى النار ، فإذا أتوه تلقاهم عقارب كأنهن البغال الدمى ، وأفاع كأنهن البخاقي (أنواع من ضخام الإبل) تضر بهم فذلك الزيادة » . وفى الآية دليل على تفاوت الكفار فى عذابهم ، كما يتفاوت المؤمنون فى منازلهم فى الجنة ودرجاتهم فيها .

ثم خاطب سبحانه عبده ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم فقال :
 ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء)
 أى واذكر أيها الرسول ذلك اليوم وهوله يوم يبعث الله نبي كل أمة شاهدا عليهم ،
 فيكون أقطع للمعذرة ، وأظهر فى إتمام الحجة عليهم ، وجئنا بك شهيدا على أمتك
 الذين أرسلت بك إليهم ، بما أجابوك وبما عملوا فيما أرسلت بك به إليهم .

وهذه الآية شبيهة بالآية التى انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم صدر سورة النساء ، فلما وصل إلى قوله « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « حسبك » فقال ابن مسعود فالتفت فإذا عيناه تذرفان .

(ونزلنا عليك الكتاب تبينا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)
 أى ونزلنا عليك أيها الرسول هذا القرآن تبينا لكل ما بالناس إليه حاجة من معرفة

الحلال والحرام والثواب والعقاب ، وهدى من الضلالة ورحمة لمن صدق به وعمل بما فيه من حدود الله وأمره ونهيته ، فأحل حلاله وحرم حرامه ، وبشرى لمن أطاع الله وأناب إليه بمزيل الثواب في الآخرة وعظيم الكرامة .

ووجه ارتباط هذا بما قبله بيان أن الذى فرض عليك تبليغ الكتاب الذى أنزله عليك ، سائلك يوم القيامة عن ذلك كما قال : فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ » وقال « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وقال « إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ » أى إن الذى أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه وسائلك عن أداء ما فرض عليك .

وتبيان القرآن لأمر الدين إما مباشرة وإما ببيان الرسول ، وقد أمرنا باتباع هذا البيان في قوله « وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » وقوله « لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » ولقوله صلى الله عليه وسلم : « إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ ومثله معه » وإما ببيان الصحابة والعلماء المجتهدين له ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ » وقد كان كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم فاجتهد الأئمة ووطئوا طرق البحث في أمور الدين لمن بعدهم ، واستنبطوا من الكتاب والسنة مذاهب وآراء في العبادات ومعاملات الناس بعضهم مع بعض ، ودونوا تشريعا ينهل منه المسلمون في كل جيل ويرجع إليه القضاة ليحكموا بين الناس بالعدل ، وكان أجل تشريع أخرج للناس كما اعترف بذلك أرباب الديانات الأخرى ومن لم يتدين منهم بدين .

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ

عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي
 نَقَضَتْ غَزَاهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ
 أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً
 وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ
 تَعْمَلُونَ (٩٣)

شرح المفردات

العدل لغة : المساواة في كل شيء من غير زيادة ولا غلو ولا نقصان فيه ولا تقصير ،
 والمراد به هنا المكافأة في الخير والشر ، والإحسان : مقابلة الخير بأكثر منه ، والشر
 بالفعول عنه ، وإيتاء ذى القربى : أى إعطاء الأقارب حقهم من الصلة والبر ، والفحشاء :
 ما قبح من القول والفعل ، فيدخل فيه الزنا وشرب الخمر والحرقص والطمع والسرقة
 ونحو ذلك من الأقوال والأفعال المذمومة ، والمنكر : ما تنكره العقول من دواعي القوة
 الغضبية كالضرب الشديد والقتل والتطاول على الناس ، والبغى : الاستعلاء على
 الناس والتجبر عليهم بالظلم والعدوان ، والوعظ : التنبيه إلى الخير بالنصح والإرشاد ،
 والعهد : كل ما يلتزمه الإنسان باختياره ، ويدخل فيه الوعد ، ونقض اليمين : الحث فيها
 وأصله فك أجزاء الجسم بعضها من بعض ، وتوكيدها : توثيقها والتشديد فيها ، كفيلا :
 أى شاهدا ورقيبا ، والغزل : ما غزل من صوف ونحوه ، والقوة : الإبرام والإحكام ،
 والأنكاث ، واحدا نكث ، وهو ما ينكث قتله وينقض بعد غزله ، والدخل : المكسر
 والخديعة . وقال أبو عبيدة : كل أمر لم يكن صحيحا فهو دخل ، ويراد به أن يظهر
 الوفاء بالعهد ويبطن النقض ، أربى : أى أكثر وأوفر عددا .

المعنى الجملى

بعد أن بالغ سبحانه في الوعد للمتقين والوعيد للكافرين ، وعاد وكررى الترغيب والترهيب إلى أقصى الغاية ، أردف ذلك بذكر هذه الأوامر التي جمعت فضائل الأخلاق والآداب وضروب التكاليف التي رسمها الدين وحث عليها لما فيها من إصلاح حال النفوس ، وصلاح حال الأمم والشعوب ، ثم ضرب الأمثال لمن يحمدها عنها وينفر من فعلها .

ثم أبان أن أمر الهداية والإضلال بيد الله ، والله قد قدره على حسب استعداد النفوس للصالح والغواية ، وسيجازى يوم القيامة كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب .

أخرج البخارى وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والحاكم والبيهقى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « أعظم آية في كتاب الله تعالى : الله لا إله إلا هو الحي القيوم » وأجمع آية في كتاب الله للخير والشر الآية التي في النحل « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » وأكثر آية في كتاب الله تقويضا « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » وأشد آية في كتاب الله رجاء « يَا عِبَادِ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا » وعن عكرمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد ابن المغيرة هذه الآية فقال له يابن أخى أعد على فأعادها عليه ، فقال له الوليد : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو بقوله البشر .

وأخرج البيهقى في شعب الإيمان عن الحسن رضى الله عنه أنه قرأ هذه الآية « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » الآية ثم قال إن الله عز وجل جمع لكم الخير كله والشر كله في آية واحدة ، فوالله ما ترك العدل والإحسان من طاعة الله شيئاً إلا جمعه وأمر به ، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغى من معصية الله شيئاً إلا جمعه وزجر عنه .

قال الحافظ أبو يعلى فى كتاب معرفة الصحابة عن على بن عبد الملك بن عُمير عن أبيه قال : بلغ أكرم بن صيفى مخرج النبى صلى الله عليه وسلم فأراد أن يأتيه فأبى قومه أن يدعوه وقالوا : أنت كبيرنا لم تكن لتخف إليه ، قال فليأته من يبلغه عنى ويبلغنى عنه ، فانتدب رجلان فأتيا النبى صلى الله عليه وسلم فقالا : نحن رسل أكرم بن صيفى وهو يسألك من أنت وما أنت ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أما من أنا ؟ فأنا محمد بن عبد الله ، وأما ما أنا ؟ فأنا عبد الله ورسوله ، قال ثم تلا عليهم : إن الله يأمر بالعدل والإحسان الآية .

قالوا ردّد علينا القول فردده عليهم حتى حفظوه ، فأتيا أكرم فقالا أبى أن يرفع نسبه ، فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكى النسب وسطا فى مضر ، وقد رعى إلينا بكلمات قد سمعناها ، فلما سمعنا أكرم قال : إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملامتها ، فكونوا فى هذا الأمر رؤسا ولا تكونوا فيه أذنا ، وكونوا فيه أولا ، ولا تكونوا فيه آخرا .

وقال سعيد بن جبير عن قتادة فى قوله (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) الآية ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعمدون به ويستحسنونه إلا أمر الله به ، وليس من خلق سيئ كانوا يتعابرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم فيه ، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها .

الإيضاح

(إن الله يأمر بالعدل والإحسان) أى إن الله يأمر فى هذا الكتاب الذى أنزله إليك أيها الرسول بالعدل والإنصاف ، ولا نصفة أجل من الاعتراف بمن أنعم علينا بنعمه ، والشكر له على إفضاله ، وحده وهو أهل للحمد ، ومنع ذلك عن ليس له بأهل ، فالأوثان والأصنام لا تستحق شيئا منه ، فمن الجهل عبادتها وحدها

وهي لا تنعم فتشكر ، ولا تنفع فتعبد ، ومن ثم وجب أن يشهد أن لا إله إلا الله وحده .

أخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي أنه قال : دعاني عمر بن العزيز فقال : صف لي العدل ، فقلت بئح سألت عن أمر جسيم ، كن لصغير الناس أباً ولأكبرهم ابناً ، والمثل منهم أخا ، وللنساء كذلك ، وعاقب الناس على قدر ذنوبهم وعلى قدر أجسامهم ، ولا تضربن غضبك سوطاً واحداً فتكون من العادين .

وأخرج البخاري في تاريخه أن علي بن أبي طالب مرّ بقوم يتحدثون ، فقال قيم أتم ؟ فقالوا نتذاكر المروءة فقال : أو ما كفاكم الله عز وجل ذلك في كتابه إذ يقول : إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، فالعدل الإنصاف ، والإحسان : التفضل ، فما بقي بعد هذا ؟ .

وأعلى مراتب الإحسان الإحسان إلى المسيء ، وقد أمر به النبي صلى الله عليه وسلم ، وروى عن الشعبي أنه قال : قال عيسى بن مريم عليه السلام إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك . وقد صح من حديث ابن عمر في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

(وإيتاء ذى القربى) . أى وإعطائهم ما تدعو إليه الحاجة ، وفى الآية إرشاد إلى صلة الأقارب والأرحام وترغيب فى التصديق عليهم ، وهذا وإن دخل فيما سلف من الإحسان — فقد خصص للاهتمام به والعناية بشأنه .

وبعد أن ذكر الثلاثة التى أمر بها أتبعها بالثلاثة التى نهى عنها فقال :

(وينهى عن الفحشاء) وهى الغلو فى الميل إلى القوة الشهوانية كالزنا وشرب الخمر والسرقه والطمع فى مال الناس .

(والمنكر) وهو ما تنكره العقول من المساوى الناشئة من الغضب كالضرب والقتل والتطاول على الناس .

(والبغى) وهو ظلم الناس والتمدى على حقوقهم .

وخلاصة ماسلف — إن الله يأمر بالعدل ، وهو أداء القدر الواجب من الخير ، وبالإحسان ، وهو الزيادة فى الطاعة والتعظيم لأمر الله والشفقة على خلقه ، ومن أشرف ذلك صلة الرحم .

وينهى عن التعالى فى تحصيل الذات الشهوانية التى يأبأها الشرع والعقل ، وعن الإفراط فى اتباع دواعى الغضب بإيصال الشر إلى الناس وإيذائهم وتوجيه البلاء إليهم ، وعن التكبر على الناس والترفع عليهم وتصغير الخلد لهم .

(يعظكم لعلمكم تذكرون) أى أمركم بثلاث ونهاكم عن ثلاث ، كى تتعظوا فتعملوا بما فيه رضاء سبحانه وتعالى ، وما فيه صلاحكم فى دنياكم وآخرتكم . وبعد أن ذكر المأمورات والمنهيات بطريق الإجمال فى الآية الأولى — ذكر بعضها على سبيل التخصيص فقال :

(وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم) أى وأوفوا بميثاق الله إذا واثقتموه ، وعقدتم إذا عاقدتموه ، فأوجبتم به على أنفسكم حقا لمن عاقدتموه وواثقتموه عليه ، ويدخل فى ذلك كل عهد يلتزمه الإنسان باختياره ، والوعد من العهد ، ومن ثم قال ميمون ابن مهران : من عاهدته وف بعهده ، مسلما كان أو كافرا ، فإنما العهد لله تعالى . (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) أى لا تخالفوا ما عاقدتم فيه الأيمان وشددتم فيه على أنفسكم ، فتخنثوا فيه وتكذبوا وتنقضوه بعد إبرامه ، وقد جعلتم الله بالوفاء بما تعاقدتم عليه راعيا يرعى الموفى منكم بالعهد والناتض له بالجزاء عليه .

ثم وعد وأوعد فقال :

(إن الله يعلم ما تفعلون) فى العهود التى تعاهدون الله الوفاء بها ، والأيمان التى تؤكدها على أنفسكم ، أتبرون فيها أم تنقضونها ؟ وهو محص ذلك كله عليكم وسألتكم عنه وعما علمتم فيه ، فاحذروا الله أن تلقوه وقد خالفتكم أمره ونهيه ، فتستوجبوا منه ما لا قبل لكم به من أليم عقابه .

أخرج ابن جرير عن مَزِيدَةَ بن جابر أن الآية نزلت في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم كان من أسلم يبايع على الإسلام ، فقال تعالى : (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) فلا تحملنكم قلة محمد وأصحابه وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام ، وإن كان في المسلمين قلة وفي المشركين كثرة .

ثم أكد وجوب الوفاء وتحريم النقض مع ضرب المثل فقال :
(ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا) أى ولا تكونوا أيها القوم في نقضكم أيمانكم بعد توكيدها ، وإعطائكم ربكم العهود والمواثيق كمن تنقض غزلها بعد إبرامه وإحكامه ، وتنفضه بعد أن جعلته طاقات ، حاققة منها وجهلا .
قال الشدّي : هذه امرأة خرقاء كانت بمكة ، كلما غزلت غزلا نقضته بعد إبرامه .

والخلاصة — إنه تعالى شبه حال الناقض للعهد بحال من تنقض غزلها بعد قتله وإبرامه ، تحذيرا للمخاطبين وتنبيها إلى أن هذا ليس من فعل العقلاء ، وصاحبه في زمرة الحق من النساء .

(تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة) أى تجعلون أيمانكم التي تحلفون بها على أنكم موفون بالعهد من عاقدم — خديعة وغرورا ليطمئنوا إليكم ، وأنتم مضمرون لهم الغدر وترك الوفاء بالعهد ، والنقلة إلى غيرهم من أجل أنهم أكثر منهم عدداً وعدداً وأعز نفرا ، بل عليكم بالوفاء بالعهود والحفاظة عليها في كل حال .
قال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز نفرا فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز نفرا فنهوا عن ذلك ، وقيل هو تحذير للمؤمنين أن يغتروا بكثرة قریش وسعة أموالهم فينقضوا بيعة النبي صلى الله عليه وسلم .

(إنما يباوكم الله به) أى إنما يعاملكم الله معاملة المختبر بأمره إياكم بالوفاء بعهده

إذا عاهدتم ، لينظر أتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله تعالى وبيعة رسوله ، أم تغفرون بكثرة قریش وشركتهم ، وقلة المؤمنين وضعفهم على حسب ظاهر الحال .

ثم أنذر وحذر من خالف الحق وركن إلى الباطل فقال :

(وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) أى وليبينن لكم ربكم يوم القيامة إذا وردتم عليه لمجازاة كل فريق منكم على عمله فى الدنيا ، الحسن منكم بإحسانه ، والمسيء بإساءته — ما كنتم تختلفون فيه فى الدنيا من إقرار المؤمن بوحدانية ربه ، ونبوة نبيه ، والوحى إلى أنبيائه ، والكافر بكذبه بذلك كله .

وبعد أن أبان أنه كلفهم الوفاء بالعهد ، وتحريم نقضه أتبعه ببيان أنه قادر على جمعهم على هذا الوفاء وعلى سائر أبواب الإيمان فقال :

(ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهذى من يشاء) أى ولو شاء الله لجمع الناس على دين واحد بمقتضى الغريزة والفطرة ولم يجعل لهم اختيارا فيما يفعلون ، فكانوا فى حياتهم الاجتماعية أشبه بالمل والنحل ، وفى حياتهم الروحية أشبه بالملائكة ، مغطورين على طاعة الله واعتقاد الحق ، وعدم الميل إلى الزيف والجور ، لكنه تعالى خلقهم كاسبين لا ملهمين ، وعاملين بالخيار لا مغطورين وجعلهم متفاوتين فى الاستعداد وكسب العلم ، فلانسان اختيار أوتيته على حسب استعداده الأزل وهو مجبور فيه ، والثواب والعقاب يترتبان على هذا الاختيار الذى يشاهد ، وتكون عاقبته الجنة أو النار .

(ولتسألن عما كنتم تعملون) أى ولتسألن يوم القيامة جميعا سؤال محاسبة ومجازاة ، لاسؤال استفهام واستفسار ، وقد تكرر ذكر هذا المعنى فى سور كثيرة .

وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا
وَتَذُوقُوا الشَّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤)

وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِنْدَ كُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)

شرح المفردات

زلة القدم بعد ثبوتها : مثل يقال لمن وقع في محنة بعد نعمة ، وبلاء بعد عافية ، والحياة الطيبة : هى القناعة وعدم الحرص على لذات الدنيا ، لما فى ذلك من الكد والعناء .

المعنى الجملى

بعد أن حذر سبحانه من نقض العهود والأيمان على الإطلاق — حذر فى هذه الآية من نقض أيمان مخصوصة أقدموا عليها وهى نقض عهد رسول الله على الإيمان به ، واتباع شرائعه جرياً وراء خيرات الدنيا وزخارفها ، وأبان لهم أن كل ذلك زائل وما عند الله باق لا ينفد ، ثم هو بعدُ يجزيهم الجزاء الأوفى .

الإيضاح

(ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم) أى ولا تجعلوا أيمانكم خديعة تعرفون بها الناس ، والمراد بذلك نهى المخاطبين بذلك الخطاب عن نقض أيمان مخصوصة أقدموا عليها .

ذلك أنهم بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام وحلفوا على ذلك أوكد الأيمان ثم نقضوا ما فعلوا لقله أهله وكثرة أهل الشرك ، فنهوا عن ذلك .

(فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم) أى إنكم بعملكم هذا تكونون قد وقعتم في محظورات ثلاثة .

(١) إنكم تضلون وتبعدون عن محجة الحق والهدى بعد أن رسخت أقدامكم فيها .

(٢) إنكم تكونون قدوة لسواكم وتستنون سنة لغيركم ، فيها صد عن سبيل الحق ، ويكون لكم بها سوء العذاب في الدنيا بالقتل والأسر وسلب الأموال والجلاء عن الديار .

(٣) إنكم ستعاقبون في الآخرة أشد العقاب جزاء ما اجترحتم من مخالفة الحق والإعراض عن أهله ، والدخول في زمرة أهل الشقاء والضلال .

ثم أكد هذا التحذير بقوله :

(ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا) أى ولا تأخذوا في مقابلة نقض العهد عوضا يسيرا من الدنيا ، وقد كان هذا حال قوم ممن أساءوا بمكة ، زين لهم الشيطان أن ينقضوا ما بايعوا رسول الله عليه ، جزعا مما رأوا من غلبة قريش ، واستضعافهم للمؤمنين ، وإيذائهم لهم ، ولما كانوا يعدونهم به من البذل والعطاء إن هم رجعوا إلى دينهم ، فنبههم الله بهذه الآية ونهاهم عن أن يستبدلوا الخير العميم والنعيم المقيم في الآخرة بما وعدوهم به من عرض الدنيا وزينتها .

ثم بين سبحانه قلة ما أخذوا ، وعظيم ما تركوا بقوله :

(إن ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون) أى إن ما خبأه الله لكم ، وأخبره من جزيل الأجر والثواب هو خير لكم من ذلك العرض القليل في الدنيا ، إن كنتم من ذوى العقول الراجحة ، والأفكار الثاقبة التي تزن الأمور بميزان الفائدة وتقدر الفرق بين العوضين .

ثم بين وجه خيريته ورجاحته شأنه بقوله :

(ما عندكم ينفد وما عند الله باق) أى إن ما تتمتعون به من نعيم الدنيا بل

الدنيا وما فيها تنفذ وتنقضى وإن طال الأمد وجل العدد ، وما في خزان الله باق لا نفاد له ، فلما عنده فاعملوا ، وعلى الباقي الذى لا ينفى فاحرصوا .

ثم رغب سبحانه المؤمنين فى الصبر على ما التزموه من شرائع الإسلام فقال :
(ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) أى ولنثيبن الذين صبروا على أذية للمشركين وعلى مشاق الإسلام التى تتضمن الوفاء بالعهود والمواثيق ، الثواب العظيم الذى هم له أهل كفاء صبرهم وهو أحسن أعمالهم ، إذ كل التكليف محتاجة إليه وهو أس الأعمال الصالحة .

وفى الآية عدة جميلة باغتفار ما عسى أن يكون قد فرط منهم أثناء ذلك من جزع يعترهم على حسب الطبيعة البشرية .

ثم رغبهم فى المثابرة على أداء الطاعات وعمل الواجبات الدينية فقال :
(من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) أى ومن عمل صالح الأعمال وأدى فرائض الله التى أوجبها عليه وهو مصدق بشوابه الذى وعد به أهل طاعته ، وبعقاب أهل المعصية على عصيانهم ، فلنجزيه حياة طيبة ، تصحبها القناعة بما قسم الله ، والرضا بما قدره وقضاه ، إذ هو يعلم أن رزقه إنما حصل بتدبيره ، والله محسن كريم لا يفعل إلا ما فيه المصلحة ، ويعلم أن خيرات الدنيا سريعة الزوال ، فلا يقيم لها فى نفسه وزنا ، فلا يعظم فرحه بوجودها ، ولا غمه بفقدانها .

ثم هو بعد ذلك يجزى فى الآخرة أحسن الجزاء ، ويثاب أجمل الثواب ، جزاء ما قدم من عمل صالح ، وتحلى به من إيمان صادق .

أما من أعرض عن ذكر الله فلم يؤمن ولم يعمل صالحا فهو فى عناء وتكد ، إذ يكون شديد الحرص والطمع فى الحصول على لذات الدنيا ، فإن أصابته محنة أو بلاء استعظم أمره ، وعظمت أحزانه ، وكثر غمه وكدره ، وإذا فاتته شئ من خيراتها عبس وبسر ، وامتلأ قلبه أسى وحسرة ، لأنه يظن أن السعادة كل السعادة

فى الحصول على زخرف هذه الحياة والتمتع بمتاعها . فإذا هو لم ينل منه ما يريد فقد حرم كل ما يحلم به ، ويقدره من وافر السعادة وعظيم الخير ، والإنسان بطبعه جزوع هلوع ممنوع (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول « اللهم قنعنى بما رزقتنى وبارك لى فيه ، واخلف على كل غائبة لى بخير » ، وأخرج الترمذى والنسائى من حديث فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قد أفلح من هدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به » . وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قد أفلح من أسلم وورزق كفافا ، وقنع الله بما آتاه » .

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)

شرح المفردات

قرأت القرآن : أى أردت قراءته كما تقول إذا أكلت فقل باسم الله ، وإذا سافرت فتأهب ، والرجيم : المرحوم المبعد من رحمة الله ، والسلطان : التسلط والاستيلاء ، والتولى : الطاعة يقال توليته أى أطعته ، وتوليت عنه أى أعرضت .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه يجزى المؤمنين بأحسن أعمالهم ، أرشد إلى العمل الذى به تخلص أعمالهم من وساوس الشيطان .

الإيضاح

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) أى إذا شرعت فى قراءة القرآن فاسأل الله سبحانه أن يعيذك من وساوس الشيطان الرجيم ، لئلا يلبس عليك قراءتك ، ويمنعك من التدبر والتفكير كما قال « إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ » وإذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم مع عصمته منه فما بالك بسائر أمته ثم بين أن الناس فريقان فريق لا تسلط له عليهم وهم الذين وصفهم الله بقوله :

(إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) أى إنه لا تسلط للشيطان على الذين يصدقون بقاء الله ويفوضون أمورهم إليه ، وبه يعوذون وإليه يلتجئون ، فلا يقبلون ما يوسوس به ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته . وعن سفيان الثوري أنه قال : ليس له سلطان على أن يحملهم على ذنب لا يغفر لهم - يريد أنهم أمروا بالاستعاذة منه ليحفظهم الله من وساوسه التى ربما جرتهم إلى الوقوع فى صفائر الآثام متى تقع على سبيل النذرة أو الغفلة .
والفريق الثانى الذين عناهم بقوله :

(إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) أى إنما تسلطه بالغواية والضلالة على الذين يجعلونه نصيرا لهم فيحبونه ويطيعونه ويستجيبون دعوته ، والذين هم بسبب إغوائه يشركون بربهم .

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزَلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ

أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا
لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ
اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥)

شرح المفردات

التبديل : رفع شيء ووضع غيره مكانه ، وتبديل الآية : نسخها بآية أخرى ،
وروح القدس : جبريل عليه السلام ؛ سمي بذلك لأنه ينزل بالقدس أى بما يطهر
النفوس : من القرآن والحكمة والفيض الإلهي ، بالحق : أى بالحكمة المقتضية له ،
بشر : هو جبر الرومي غلام ابن الحضرمي كان قد قرأ التوراة والإنجيل وكان النبي
صلى الله عليه وسلم يجلس إليه إذا آذاه أهل مكة ، والإلحاد : الميل يقال لحد وألحد
إذا مال عن القصد ، ومنه سمي العادل عن الحق ملحدا ، لسان : أى كلام ؛ ويقال
رجل أعجم وامرأة عجماء إذا كانا لا يفصحان عن مرادهما ، والأعجمي والأعجم : الذي
في لسانه عجمة ، من العجم كان أو من العرب ، ومن ذلك زياد الأعجم كان عربيا
في لسانه لكفة .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه بالاستعاذة من وسوسة الشيطان الرجيم حين قراءة القرآن ،
أردف ذلك بذكر باب من أبواب فتنه ووسوسته بإلقاء الشبهات والشكوك لدى
منكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر منها شبهتين :

(١) إنه قد تنزل آية من آيات الكتاب تنسخ شريعة ماضية فيعتبرون

بمحمد بذلك .

(٢) إنهم قالوا إن ما جاء به إنما هو تعليم من البشر من بعض أهل الكتاب لامن الله ، فأبطل هذه الشبهة بأنه كلام عربي مبين وما نسبت إلى تعليمه أعجمي ، فكيف به يعلمه الكلام العربي الفصيح الذي أعجز العرب قاطبة أن يأتوا بمثله .

الإيضاح

(وإذا نزلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون) أى وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكم آية أخرى ، والله أعلم بالذي هو أصلح خلقه فيما يبديل من أحكامه - قال المشركون المكذبون لرسوله : إنما أنت منقول على الله تأمر بشيء ثم تنهى عنه ، وأكثرهم لا يعلمون مافى التبديل من حكم بالغة ، وقليل منهم يعلمون ذلك وينكرون الفائدة عنادا واستكبارا .

وفى قوله (والله أعلم بما ينزل) توبيخ لهم وإيماء إلى أن التبديل لم يكن للهوى بل كان لحكمة اقتضته ودعت إليه من تغير الأحوال والأزمان ، ألا ترى أن الطبيب يأمر المريض بدواء بعينه ، ثم إذا عاده مرة أخرى نهاه عن ذلك الدواء وأمره بضده أو بما لا يقرب منه على حسب ما يرى من حال المريض .

وهكذا الشرائع إنما توضع مشاكلة للزمان والمكان والأحوال الملائمة لها ، وقد يطرأ ما يغيرها ويستدعى وضع تشريع آخر يكون أصلح للأحوال المفاجئة ، والمشاهدة تدل على صدق هذا ، فإننا نرى القوانين الوضعية تغير آنا بعد آنا إذا جد ما يستدعى ذلك ، وقد تقدم بسط هذا فى سورة البقرة .

ثم بين لهؤلاء المعترضين على حكمة النسخ الزاعمين أن ذلك لم يكن من عند الله وأن رسوله صلى الله عليه وسلم قد افتراه فقال :

(قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين) أى قل لهم : قد جاء جبريل من عند ربى بما أتوه عليكم واقتضته الحكمة البالغة من تثبيت المؤمنين وتقوية إيمانهم بما فيه من أدلة قاطعة وبراهين ساطعة على

وحدانية خالق الكون وباهر قدرته وواسع علمه ، وحث على النظر في ملكوت السموات والأرض ، وتشريع يرقى بالأُمم في أخلاقها وآدابها ومعارفها إلى مستوى لا تدانيها فيه أمة أخرى .

والخلاصة — إنه نافع كل النفع لهم في دينهم ودنياهم ، فإذا هم رأوا ذلك رسخت عقائدهم واطمأنّت قلوبهم ، كما أن فيه هداية لهم من الزيغ والضلالات ، فقيه ما يهذب النفوس ويكبح جماح الطغيان ويرد المظالم عن ظلمه ويدفع عدوان الناس بعضهم على بعض ، وفيه بشرى للمسلمين بما سيلقونه من الجفات التي تجري من تحتها الأنهار جزاء أعمالهم وكدهم ونصيبهم إرضاء لربهم .

وفي هذا إيماء إلى أن هؤلاء المشركين لهم من الصفات ضد هذا فهم متزلزلون ضالون لهم خزي ونكال في الدنيا والآخرة .

ثم حكى عنهم شبهة ثانية فقال :

(ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر) أى وإنا لنعلم أن هؤلاء المشركين يقولون جهلا : إنما يعلم محمدا هذا الذى يتلوه بشر من بنى آدم وليس بالوحى من عند الله .

فرد الله عليهم وكذبهم فى قيلهم فقال :

(لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) أى إن لسان الذى تميلون إليه بأنه يعلم محمدا — أعجمى فهو عبد رومى فيما تزعمون ، والقرآن لسان عربى مبين ، فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن فى فصاحته وبلاغته ومعانيه الشاملة من رجل أعجمى ؟ لا يقول هذا من له أدنى مُسْكَة من عقل .

وخلاصة هذا — إن ما يسمعه من ذلك البشر كلام أعجمى لا يفهمه هو ولا أتم القرآن كلام عربى تفهمونه بأدنى تأمل فكيف يكون هو ما تلقفه منه ؟ هبه تعلم منه المعنى باستماع كلامه ، فهو لم يلقف منه اللفظ ، لأن ذلك أعجمى وهذا عربى ، والقرآن كما هو معجز باعتبار المعنى هو معجز من حيث اللفظ — إلى أن العلوم الكثيرة

التي في القرآن لا يمكن تعلمها إلا بالدرس والتلقين من أخصائيين مع الاختلاف إليهم مددا متطاولة ، فليس من الميسور ولا مما يجد العقل اطمئنانا إليه أن يتعلم مثل هذا من غلام سوقي سمع منه أخبارا بلغة أعجمية لعله لم يكن يعرف معناها .

وعلى نحو آخر كأنه قيل لهم : أنتم أفصح الناس بيانا ، وأقواهم حجة وبرهانا ، وأقدرهم على الكلام نظما وثرنا ، وقد عجزتم وعجز جميع العرب أن يأتوا بمثله ، فكيف تنسبونه إلى أعجمي الكن .

وفي التشبث بأمثال هذه المطاعن الركيكة والخرافات الباذخة أبلغ دليل على أنهم بلغوا غاية العجز ، ونهاية السخف .

فدعهم يزعمون الصبح ليلا . أيعصى الناظرون عن الضياء

ثم توعدهم على ما قالوا بالعقاب في الدنيا والآخرة فقال :

(إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم) أى إن الذين لا يصدقون بأن هذه الآيات من عند الله ، بل يقولون فيها ما يقولون ، فيقولون تارة إنها مفتريات ، ويقولون أخرى إنها من أساطير الأولين - لا يهديهم الله إلى معرفة الحق الذى ينجيهم من عذاب النار ، لما يعلم من سوء استعدادهم بما اجترخوا من السيئات ودنسوا به أنفسهم من ارتكاب الموبقات ، ولهم في الآخرة إذا وردوا إلى ربهم عذاب مؤلم موجع كفاء ما نصبوا له أنفسهم من العداء لرسوله والتكذيب لآيات الكتاب .

ثم لما نسبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الافتراء رد الله عليهم بقوله : (إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) أى إنما يتخترص الكذب ويقول الباطل الذين لا يصدقون بحجج الله وآياته التي نصبها في الكون وأقامها أدلة على وجوده ووحدانيته ، لأنهم لا يرجون على الصدق ثوابا ، ولا يخشون على الكذب عقابا ، وهذه صفاتكم أيها المشركون لصفات النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ومن ثم حكم عليهم بالكذب حكما صريحا فقال :

(وأولئك هم الكاذبون) أى وأولئك الذين كفروا من رجال قريش القائلين لك أيها الرسول : إنما أنت مفترهم الكاذبون لا أنت .

وهذا تصريح بنسبة الكذب إليهم بعد التعريض ، ليكون ميسم خزي وعار لهم .

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ
بِالْإِيمَانِ ، وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ
وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى
قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ
فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩)

شرح المفردات

أكره : أى على التلفظ بكلمة الكفر ، والاطمئنان : سكون النفس بعد انزعاجها ؛
والمراد الثبات على ما كان عليه بعد إزعاج الإكراه ، شرح بالكفر صدرا : أى اعتقده .
وطاب به نفسا ، استحبوا الحياة الدنيا : أى آثروها وقدموها ، لا جرم : أى حقا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآيات السالفة أن قريشا كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وتقولوا عليه الأقاويل فوصفوه بأنه مفتر وأن الكتاب الذى جاء به هو من كلام البشر لا من عند الله ، ثم هددهم على ذلك أعظم تهديد - ففى على ذلك بيان حال من يكفر بلسانه وقلبه ملىء بالإيمان .

أخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقي في الدلائل « أن المشركين أخذوا عمار ابن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبي صلى الله عليه وسلم وذكر آلهتهم بخير ، فلما أتى رسول الله قال له ما وراءك ؟ قال شر ما تركت ، نلت منك وذكر آلهتهم بخير ، قال كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئن بالإيمان ، قال إن عادوا فعد فزلت : إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » ، وروى « أن قريشا أكرهوا عمارا وأبويه ياسرا وسمية على الارتداد فأبوا ، فربطوا سمية بين بعيرين ووجئت بحرية في موضع عقتها وقالوا إنما أسلمت من أجل الرجال فقتلوها وقتلوا ياسرا وهما أول قتيلين في الإسلام ، وأما عمار فأعظاهم بلسانه ما أكرهوه عليه ، فقبل يارسول الله إن عمارا كفر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلا إن عمارا مليء إيمانا من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه وقال : مالك ؟ إن عادوا فعد لهم بما قلت . »

الإيضاح

(من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) أى إن من كفر بالله بعد الإيمان والتبصر فعليه غضب من الله إلا إذا أكره على ذلك وقلبه مليء بالإيمان من الله والتصديق برسوله ، فلا تثريب عليه كما فعل عمار بن ياسر .

(ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) أى ولكن غضب الله وشديد عقابه لمن طابت أنفسهم بالكفر ، واعتقدوه طائعين مختارين ، لعظيم جرمهم وكبير إثمهم .

ثم بين سبب هذا الغضب فقال :

(ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة) أى ذلك الغضب من الله ، والعذاب العظيم من أجل أنهم آثروا الحياة الدنيا وزينتها على نعيم الآخرة .
(وأن الله لا يهدي القوم الكافرين) أى وأن الله لا يوفق من يجحد آياته

ويصرّ على إنكارها ، لأنه قد فقد الاستعداد لسبل الخير بما زينت له نفسه ، وسولت له من عظيم الجرم ، واختار من عظيم الإثم ، فأصبح قلبه مليئاً بما يشغله عن دواعي الإيمان بما يمليه عليه الشيطان .

(أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون) أى أولئك الذين اتصفوا بما تقدم ذكره — هم الذين طبع الله على قلوبهم فلا يؤمنون ولا يهتدون ، وأصم أسماعهم فلا يسمعون داعى الله إلى الهدى ، وأعمى أبصارهم فلا يبصرون بها حجج الله إبصار معتبر ومتعظ ، وأولئك هم الساهون عما أعد لأمثالهم من أهل الكفر ، وقد تقدم ذكر (الطبع) فى آى كثيرة .

(لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون) أى حقاً إنهم فى الآخرة هم الهالكون الذين غبنوا أنفسهم حظوظها ، وصرفوا أعمارهم فيما لا يفضى بهم إلا إلى العذاب المخلد والله در من قال :

إذا كان رأس المال عمرك فاحترس عليه من الإنفاق فى غير واجب
فما المرء فى هذه الحياة إلا كالتاجر ، يشتري بطاعة ربه سعادة الآخرة ، فإذا لم يفعل من ذلك شيئاً خسرت تجارتها ، وعاد ذلك عليه بالوبال والنكال فى جهنم وبئس القرار .

وقد حكم الله على هؤلاء الكافرين بستة أشياء :

- (١) إنهم استوجبوا غضب الله .
- (٢) إنهم استحقوا عقابه العظيم .
- (٣) إنهم استحبوا الحياة الدنيا .
- (٤) إن الله حرّمهم من الهداية للطريق القويم .
- (٥) إنه طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم .
- (٦) إنه جعلهم سبحانه من الغافلين .

قال مجاهد : أول من أظهر الاسلام سبعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر وخباب وصهيب وبلال وعمار وسمية .

أما الرسول فجاه أبو طالب ، وأما أبو بكر فجاه قومه ، وأخذ الآخرون وألبسوا دروع الحديد ، ثم أجلسوا في الشمس ، فبلغ منهم الجهد بحر الحديد والشمس ، وأتاهم أبو جهل يشتمهم ويوبخهم ويشتم سمية ثم طعنها بحربة في مامس العفة ، وقال الآخرون ما نالوا به منهم ، إلا بلالا فإنهم جعلوا يعذبونه فيقول : أحدٌ أحدٌ حتى ملوا ، فكشفوه وجعلوا في عنقه حبلا من ليف ، ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به ، حتى ملوه فتركوه .

وقال عمار : كلنا تكلم بالذي أرادوا غير بلال فإن نفسه هانت عليه فتركوه ، وقال خباب : لقد أوقدوا لي نارا ما أطفأها إلا ودك (دهن) ظهري .

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١)

شرح المفردات

أصل الفتن : إدخال الذهب النار لتظهر جودته من ردايته ، ثم استعمل في الحنة والابتلاء يصيب الانسان ، تجادل : أى تدفع وتسعى في خلاصها ، والنفس الأولى الجنة والبدن ، والنفس الثانية عينها وذاتها ، وتوفى : تعطى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف حال من كفر بالله من بعد إيمانه وحكم بأنه استحق غضب الله وعذابه الأليم يوم القيامة ، ثم ذكر حال من أكره على إجراء كلمة الكفر على لسانه وقلبه ملئ بالآيمان — أردف ذلك بذكر طائفة من المسلمين كانوا مستضعفين بمكة مهانين في قومهم فوافقوا المشركين على الفتنة في الدين والرجوع إلى دين آبائهم وأجدادهم ثم فروا وتركوا بلادهم وأهليهم ابتغاء رضوان الله وطلب

غفرانه ، وانتظنوا فى سلك المسلمين وجاهدوا معهم الكافرين ، فحكم ربهم بقبول
توبتهم ودخولهم فى زمرة الصالحين وتمتعهم بجنات النعيم يوم العرض والحساب .
أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة أن عياشا رضى الله عنه (وكان أخا أبى جهل من
الرضاعة) وأبا جندل بن سهيل وسامة بن هشام وعبد الله بن سامة الثقفى ، ففتحهم
المشركون وعذبوهم فأعطوهم بعض ما أرادوا لیسلموا من شرهم ، ثم إنهم بعد ذلك
هاجروا وجاهدوا فنزلت فيهم الآية .

الإيضاح

(ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من
بعدها لغفور رحيم) أى إن ربك أيها الرسول للذين هاجروا من ديارهم وتركوا
مساكنهم وعشائرهم من أهل الشرك ، وانتقلوا عنهم إلى ديار الاسلام من بعد
ما فتنهم المشركون الذين كانوا بين ظهرائهم قبل هجرتهم ، ثم جاهدوا المشركين بعد
ذلك بأيديهم بالسيف ، وبألسنتهم بالبراءة منهم ومما يعبدون من دون الله وصبروا
على جهادهم — إن ربك من بعد أفعالهم هذه لدوستر على ما كان منهم من إعطاء
المشركين ما أرادوا منهم من كلمة الكفر بألسنتهم ، وهم لغيرها مضطرون ، وللايمان
معتقدون ، رحيم بهم أن يعاقبهم عليها مع إنابتهم إليه ، وجميل صنعهم من بعد .

(يوم تاتى كل نفس تجادل عن نفسها) أى إن ربك لغفور رحيم بهؤلاء يوم
تأتى كل نفس تخصم عن نفسها وتحاج عنها وتسعى فى خلاصها بما أسلفت فى الدنيا
من عمل ، ولا يهمها شأن غيرها من ولد ووالد وقريب .

(وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون) وتعطى كل نفس جزاء ما عملت
فى الدنيا من طاعة أو معصية ، فيجزى الحسن بما قدم من إحسان ، واليسى بما
أسلف من إساءة ، ولا يعاقب محسن ولا يثاب مسىء .

والخلاصة - إن كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره كما قال :
« لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » .

وجاء في بعض الآثار : « إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه يقول : رب نفسي نفسي حتى إن إبراهيم الخليل ليفعل ذلك » .

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا
مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ
بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ
الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣)

المعنى الجملي

بعد أن هدد الله الكافرين بالعذاب الشديد في الآخرة - أردف ذلك بالوعيد
بآفات الدنيا من جوع وقفر وخوف شديد بعد أمن واطمئنان وعيش رغد .

الإيضاح

(وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان
فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . ولقد جاءهم
رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون) أى بين الله صفة قرية كان
 أهلها آمنين من العدو والقتال والجوع والسبي ، يأتيها الرزق الكثير من سائر البلدان
 فكفروا بنعم الله فعمهم الجوع والخوف ، وذاقوا مرارتها بعد سعة العيش والطمأنينة
 وقد جاءهم رسول من جنسهم يعرفونه بأصله ونسبه ، فكذبوه فيما أخبرهم به من

وجوب الشكر على النعمة ، فأخذهم العذاب واستأصل شأفتهم لالتباسهم بالظلم وهو الكفر وتكذيب الرسول .

وفى هذا إيماء إلى تماديهم فى الكفر والعناد ، وإلى أن ترتيب العذاب على تكذيب الرسول جاء على سنة الله فى أنه لا يعذب أمة إلا إذا أنذرهم ، وبعث إليهم رسولا يعظها ويرشدها كما يدل على ذلك قوله « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » وهكذا حال أهل مكة ، فإنهم كانوا فى حرم آمن يتخطف الناس من حولهم ، ولا يمر بهم طيف من الخوف ولا يزجج قلوبهم مزعج ، وكانت تبجى إليهم ثمرات كل شيء ، وقد جاءهم رسول من أنفسهم فأنذرهم وحذرهم فكفروا بأنهم الله وكذبوا رسوله فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر وأذاقهم لباس الجوع والخوف بدعاء رسوله إذ قال : « اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرِّ وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سَنِينَ كَسَنَى يُوسُفَ » فاضطروا إلى أكل الجيف والكلاب الميتة والعظام المحرقة ، وكان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى شبه الدخان من الجوع ، وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كانوا يغيرون على مواشيهم وغيرهم وقوافلهم ، ثم أخذهم يوم بدر ما أخذهم من العذاب ، وقد جعل الله الجوع والخوف للذين خالطوا أذاها أجسامهم - لباسا لهم ، لأن أثرها وضررها قد أحاط بهم من كل جانب فأشبهها اللباس الذى يغطى الجسم ويحيط به ، وحمل إصابتهم بهما إذ اذقة دلالة على شدة تأثيرها الشديد الذى حدث فيهم كما يكون ذلك حين ذوق شيء مرّ بشع كراهه ، إذ يجد الذائق تقززا واشمئزازا .

فَكُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ لِيَاءَهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمِمَّا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ

غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥) وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٩)

شرح المفردات

يقولون : له وجه يصف الجمال ، وعين تصف السحر ، يريدون أنه جميل وأن عينه تفتن من رآها ؛ لأنه لما كان وجهه منشأ للجمال وعينه منبعاً للفتنة والسحر كان كل منهما كأنه إنسان عالم بكنههما محيط بحقيقتهما يصفهما للناس أجمل وصف ويعرفهما أتم تعريف ، وعلى هذا الأسلوب جاء قوله تعالى : وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ ، إذ جعل الكذب كأنه حقيقة مجبولة وكلامهم الكذب يشرح تلك الحقيقة ويوضحها ، كأن ألسنتهم لكونها موصوفة بالكذب هي حقيقته ومنبعه الذي يعرف منه ، وعليه قول أبي العلاء المعري :

سرى برق المعرفة بعد وهن قبات بزامة يصف الكلالا

أى إن سرى ذلك البرق يصف الكلال والإعياء .

لتفتروا : أى لتكون العاقبة ذلك ، والجهالة هنا : الطيش وعدم التدبر في العواقب .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه حال من كفروا بأنعم الله وكذبوا رسوله وأنه قد حل بهم العذاب من جوع وخوف بسبب ظلمهم لأنفسهم وصددهم عن سبيل الله - قفى على

ذلك بأمر المؤمنين بأكلهم من الحلال الطيب وشكرهم لنعمة الله عليهم وطاعتهم للرسول فيما به أمر وعنه نهى كيلا يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم ، ثم بيان ما حرمه من المأكول ، وأن التحليل والتحریم لا يكونان إلا بقص من الدين لا بالهوى والشهى ، لأن ذلك افتراء على الله ، ومن يفتري عليه لا يفلح ، وأن ما حرم على اليهود قد ذكره فيما نزل عليه من قبل في سورة الأنعام ، وأن من يعمل سوء لعدم تدبره في العواقب كغلبة الشهوة عليه ثم يتوب من بعد ذلك ويصلح أعماله ، فإن الله غفور لزلاته ، رحيم به فيثيبه على طاعته .

الإيضاح

(فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمة الله إن كنتم تعبدون)
 أى فكلوا يا معشر المؤمنين مما رزقكم الله من بهائم الأنعام التى أحلها لكم وذروا الخبائث وهى الميتة والدم ، واشكروا الله على ما أنعم به عليكم بتحليله ما أحل لكم ، وبسائر نعمه المتظاهرة عليكم ، إن كنتم تعبدونه فتطيعونه فيما يأمركم به وتتنبهون عما ينهاكم عنه ، والمراد بذلك الحث على اتباع أوامره والمداومة عليها .

وبعد أن أمرهم بالأكل من الطيبات بين لهم ما حرم عليهم فقال :

(إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به) أى إنما حرم عليكم ربكم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح للأنصاب فسمى عليه بغير اسمه تعالى ، فإن ذلك من ذبائح من لا يحل أكل ذبيحته .

والخلاصة — إن ما سمي عليه غير الله عند الذبح سواء كان صنما أو وثنا أو روحا خبيثا من جن أو روحا طيبا من إنس كالنبي والولي حيا أو ميتا ، فأكله حرام لما جاء فى الحديث «لمعون من ذبح لغير الله» سواء سمي الله عند ذبحه أو لم يسم ، لأن هذا الحيوان قد انتسب إلى غيره تعالى ، فمن ذبح للسيد البدوى أو لإبراهيم الدسوقي أو للسيدة زينب لا يجوز أكل هذا الذبيح .

ثم ذكر الحال التي يسوغ فيها تناول شيء من هذه المحرمات فقال :

(فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم) أى فمن اضطر إلى تناول شيء من هذه المحرمات لجماعة حلت به ، وضرورة دعته إلى أخذ شيء منها ، غير باغ على مضطر آخر ولا متعدي قدر الضرورة وسد الرمق - فالله لا يؤاخذ على ذلك وهو الذى يستمر ما يصدر منهم من الهفوات ، وهو الرحيم بهم أن يعاقبهم على مثل ذلك ، أما ما حرموه غير ذلك من البحائر والسوائب والوصائل ونحوها مما تقدم فى سورة الأنعام فهو محض افتراء على الله ، وقد تقدم مثل هذه الآية فى سور البقرة والمائدة والأنعام وفيها حصر المحرمات فى هذه الأربع فحسب .

ثم أكد حصر المحرمات فى هذه الأربع ونهى عن التحريم والتحليل بالأهواء فقال :

(ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام) أى ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام بالرأى والهوى ، فلا تقولوا ما نرى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورتنا ومحرم على أزواجنا ، ولا تحللوا الميتة والدم ولحم الخنزير الخ .

وخلاصة ذلك - لا تحللوا ولا تحرموا لمجرد وصف ألسنتكم الكذب وتصويرها له دون استناد إلى دلائل ، وكأن ألسنتكم لأنها منشأ الكذب وينبوعه شخص عالم بحقيقته ومحيط بكنهه يصفه للناس ويوضحه لهم أتم إيضاح .

(لنتفوتوا على الله الكذب) أى لتكون عاقبة أمركم إسناد التحريم والتحليل إلى الله كذباً من غير أن يكون ذلك منه ، فالله لم يحرم من ذلك ما تحرمون ولا أحل كثيراً مما تحللون .

وإجمال ذلك - لا تسموا ما لم يأتكم حله ولا حرمة عن الله ورسوله خلافاً وحراماً فتكونوا كاذبين على الله ، لأن مدار الحل والحرمة ليس إلا حكمه تعالى .
عن أبى نضرة قال : قرأت هذه الآية فى سورة النحل فلم أزل أخاف الفتيا إلى

يومي هذا - وقد صدق فكل من أفتى بخلاف ما في كتاب الله وسنة رسوله لجهله بما فيهما فقد ضل وأضل من يفتيهم ، والله در القائل :

كبهيمة عمياء قاد زمامها أعمى على عوج الطريق الخائر
أخرج الطبراني عن ابن مسعود قال : عسى رجل يقول إن الله أمر بكذا
أو نهى عن كذا فيقول الله عز وجل كذبت ، أو يقول إن الله حرم كذا أو أحل
كذا فيقول الله له كذبت .

ثم أوعد الله المتقين وهددهم أشد التهديد فقال :
(إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) أى إن الذين يتخرون
الكذب على الله فى أمورهم صغيرها وكبيرها لا يفوزون بخير فى المطالب التى لأجلها
كذبوا على ربهم ، إذ هم متى عرفوا بالكذب مجهم الناس وانصرفوا عنهم وعاشوا
أذلة بينهم ممقوتين ويكونون مضرب الأمثال فى الهوان والصغار - إلى ما يصيبهم
من الخزي والوبال يوم القيامة .

ثم بين أن ما يحصل لهم من المنافع بالافتراء على الله ليس شيئا مذكورا إذا قيس
بالمضار التى تنجم منه فقال :

(متاع قليل ولهم عذاب أليم) أى إن المنافع التى قد تحصل لهم على ذلك
فى الدنيا لا يعتد بها فى نظر العقلاء إذا ووزن بينها وبين المضار التى فى الآخرة ،
فما متاع الدنيا إلا ظل زائل ثم يفنى ويبقى لهم العذاب الأليم حين مصيرهم إلى ربهم
بما اجتروا من السيئات ، ودنسوا به أنفسهم من أضرار الإثم والفجور والكذب
على بارئهم الذى خلقهم وصورهم فأحسن صورهم . ونحو الآية قوله : « ^{بمستورهم} تمتعهم
قليلا ثم نطرتهم إلى عذاب غليظ » .

وبعد أن بين ما يحل وما يحرم لأهل الإسلام أتبعه ببيان ما خص به اليهود من
الحرمات فقال :

(وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل) أى وحرمنا من قبلك

أيها الرسول على اليهود ما أنبأناك به من قبل في سورة الأنعام : «وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالنَّعَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ» .

ثم بين السبب في ذلك التحريم عليهم فقال :

(وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى وما ظلمناهم بتحريم ذلك عليهم ، ولكن ظلموا أنفسهم بمعصيتهم لربهم وتجاوزهم حدوده التى حدها لهم وانتهاك حرمانه ، فعوقبوا بهذا التحريم كما قال فى آية أخرى : « فَيُظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ » الآية .

وفى هذا إيماء إلى أن ذلك التحريم إنما كان للظلم والبغي عقوبة وتشديدا ، وبه يعلم الفرق فى التحريم بينهم وبين غيرهم ، فإنه لهم عقوبة ، ولنا للمضرة نجس . ثم بين أن الافتراء على الله وانتهاك حرمانه لا يمنع من التوبة التى يتقبلها الله منهم ويغفر لهم زلاتهم رحمة منه وفضلا فقال :

(ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم) أى إن ربك للذين افترأوا عليه وأشركوا به سواء وزكبوا ما لا يليق من المعاصى بسبب الجهالة التى تحملهم على انتهاك حرمان الدين كالقتل للغير أو للعصية كما جاء فى الخبر « اللهم إني أعوذ بك من أن أجهل أو يجهل علي » . وقال عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهان أحسد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

إنه لغفور رحيم بهم إذا هم تابوا وندموا على ما فرط منهم وأصلحوا أعمالهم ففعلوا ما يحب الله ورسوله .

وفى قوله : بجهالة ، إيماء إلى أن من يأتى الذنوب قلما يفكر فى العاقبة لغلبة الشهوة عليه أو لجهالة الشباب والعيش .

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠)
 شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ
 فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
 أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) إِنَّمَا جُعِلَ
 السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤) أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ
 وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ
 ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ
 مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ
 وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ
 (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨)

شرح المفردات

الأمة : الجماعة الكثيرة ، وسمى إبراهيم أمة لأنه قد جمع من الفضائل والكمالات
 ما لو تفرق لكفى أمة ، ألا ترى أبا نواس إذ يقول لهرون الرشيد مادحا :
 وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

والقانت : المطيع لله القائم بأمره ، والحنيف : المائل عن الدين الباطل إلى الدين
 الحق ، واجتباؤه : اختياره واصطفاه ، والحسنة : هي محبة أهل الأديان جميعا له إجابة
 لدعوته لربه « وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » وجعل السبت لليهود : فرض
 تعظيمه والتخلي فيه للعبادة وترك الصيد ، والحكمة : المقالة المحكمة المصحوبة بالدلائل

الموضح للحق المزيل للشبهة ، والموعظة الحسنة : الدلائل الظنية المقنعة للعامة ، والجدل : الحوار والمناظرة لإقناع المعاند ، والعقاب في أصل اللغة : المجازاة على أذى سابق. ثم استعمل في مطلق العقاب ، والضيق (بفتح الضاد وكسرها) الغم وانقباض الصدر.

المعنى الجملى

بعد أن زيف سبحانه مذاهب المشركين في إثبات الشركاء والأنداد لله ، وفي طعنهم في نبوة الأنبياء والرسل بنحو قولهم: لو أرسل الله رسلا لأرسل ملائكة. وفي تحليلهم أشياء حرمها الله ، وتحريم أشياء أحلها الله ، وبالغ في رد هذه المعتقدات . ختم السورة بذكر إبراهيم رئيس الموحدين الذى كان المشركون يفتخرون به ، ويقرون بوجوب الاقتداء به ، ليصير ذكر طريقته حاملا لهم على الإقرار بالتوحيد والرجوع عن الشرك ، ثم بأمر نبيه محمد صلى الله عليه وسلم باتباعه ، ثم بجعل الأسس التى يبني عليها دعوته هى الحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالحسنى ، ثم بأمره باللين فى العقاب إن أراد أو بترك العقاب ، وهو أفضل للصابرين ، ثم بأمره بجعل الصبر رائده فى جميع أعماله ، ونهيه عن الحزن على كفر قومه وأنهم لم يجيبوا دعوته ، وأنهم يمكنون به ، فالله ينصره عليهم ويكفيه أذاهم ، فقد جرت سنته بأن العاقبة للمتقين ، والخذلان للعاصين الخائنين .

الإيضاح

(إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين. شاكرا لأنعمه اجتباها. وهده إلى صراط مستقيم . وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين). مدح الله عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ، ووالد الأنبياء بجملة صفات . من صفات الكمال :

(١) إنه وحده كان أمة ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : إنه كان عنده غليه .

السلام من الخير ما كان عند أمة ، فهو رئيس الموحدين ، كسر الأصنام ، وجادل الكفار ، ونظر في النجوم ، ودرس الطبيعة الكونية ليطمئن قلبه بالإسلام .
(٢) إنه كان قائماً أى مطيعاً لله قائماً بأمره .

(٣) إنه كان حنيفاً أى مائلاً عن الباطل ، متبعاً للحق لا يفارقه ولا يحيد عنده .
(٤) إنه ما كان من المشركين فى أمر من أمور دينهم ، بل كان من الموحدين فى الصغر والكبر ، فهو الذى قال للملك فى عصره « رَبِّى الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ » وهو الذى أبطل عبادة الأصنام والكواكب بقوله : « لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ » وكسر الأصنام حتى ألقوه لأجلها فى النار فكانت عليه برداً وسلاماً .

وعلى الجملة فقد كان غارقاً فى بحار التوحيد مستغرقاً فى حب الإله المعبود ، وفى ذلك رد على كفار قريش إذ قالوا نحن على ملة إبراهيم ، وعلى اليهود الذين أشركوا وقالوا عزيز ابن الله ، مع زعمهم أن إبراهيم كان على مثل ما هم عليه ؛ ونحو الآية قوله : « مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

(٥) إنه كان شاكراً لأنعم الله عليه كما قال : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى » أى قام بجميع ما أمره الله تعالى به ، وفى هذا تعريض بكفار قريش الذين جحدوا بأنعم الله فأصابهم الجوع والخوف كما تقدم ذكره فى المثل السابق .

(٦) إنه اجتنبه ربه واختاره للنبوّة كما قال : « وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ » .

(٧) إنه هداه إلى صراط مستقيم ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له مع إرشاد الخلق إلى ذلك والدعوة إليه .

(٨) إن الله حبيه إلى جميع الخلق ، لجميع أهل الأديان مسلميههم ونصاراهم ويهودهم يعترفون به ، وكفار قريش لا نخر لهم إلا به ، وقد أجاب الله دعاءه فى قوله « وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » .

(٩) إنه في الآخرة في زمرة الصالحين وهو معهم في الدرجات العلى من الجنة ،
إجابة لدعوته قال « رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالْعَالِحِينَ » .

و بعد أن وصف إبراهيم بهذه الصفات الشريفة التي بلغت الغاية في علو المرتبة .
أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم باتباعه فقال :

(ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين) أى ثم
أوحينا إليك أيها الرسول وقلنا لك : اتبع ملة إبراهيم الحنيفية المسماة البريئة من
عبادة الأوثان والأنداد التي يعبدونها قومك ، كما تبرا إبراهيم من مثلها من قبل ،
فأنت متبع له وسائر على قدمه ، وقومك ليسوا كذلك ، لأنهم يحللون ويحرمون
من عند أنفسهم .

ونحو الآية قوله في سورة الأنعام : « قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .
ذِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

وخلاصة ذلك — إنه عليه السلام أمر باتباع ملة إبراهيم بنفى الشرك وإثبات
التوحيد ، وإن كان قد ثبت ذلك بالدليل العقلي ، ليظهر الدليل النقلى الدليل العقلي .
وقوله (وما كان من المشركين) تنكير لزيادة التوكيد وتقرير لزاهته عليه
السلام عما هم عليه من عقيدة وعمل .

ثم نعى على اليهود ما اختلفوا فيه وهو يوم السبت فقال :

(إِنَّمَا جَعَلَ السَّبْتَ عَلَى الَّذِينَ اِخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيُحْكَمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) أى إنما جعل وبال يوم السبت وهو المسخ على الذين
اختلفوا فيه ، فأحلوا الصيد فيه تارة وحرموه أخرى ، وكان من الختم عليهم أن
يتفقوا فيه على كلمة واحدة بعد أن أمروا بالكف عن الصيد فيه . كما أن وبال
التحريم والتحليل من المشركين من عند أنفسهم واقع عليهم لا محالة .

وإن ربك يفضل بين الفريقين في الخصومة والاختلاف ، ويجازى كل فريق
بما يستحق من ثواب وعقاب .

وإيراد هذه العبارة بين سابق الكلام ولاحقه — إنذار للمشركين وتهديد لهم بما في مخالفة الأنبياء من عظيم الوبال والنكال ، كما ذكر مثل القرية فيما سلف ، إلى أن في هذا حثا على إجابة الدعوة التي تضمنها سابق الكلام وأمرها بها في للاحقه ؛ ثم فصل سبحانه ما أمر باتتباع إبراهيم فيه فقال :

(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن)
أى ادع أيها الرسول من أرسلك إليهم ربك بالدعاء إلى شريعته التى شرعها لخلقهم بوحى الله الذى يوحى إليك ، وبالعبر والمواعظ التى جعلها فى كتابه حجة عليهم ، وذكرهم بها فى تنزيله كالذى عدده فى هذه السورة . وخاصهم بالخصومة التى هى أحسن من غيرها بأن تصفع عما نالوا به عرضك من أذى ، وترفق بهم بحسن الخطاب ، كما قال فى آية أخرى : « وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ » الآية ، وقال أمرا موسى وهرون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون « فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى » .

ثم تواعد سبحانه ووعد فقال :

(إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) أى إن ربك أيها الرسول هو العليم بمن جار عن قصد السبيل من المختلفين فى السبت وغيره ، وأعلم بمن كان منهم سالكا قصد السبيل ومحجة الحق ، وهو مجازيهم جميعا حين ورودهم إليه على حسب ما يستحقون .

وخلاصة ذلك — انك فى الدعوة والمناظرة الطريق المثلى وهى الدعوة بالتى هى أحسن ، وليس عليك غيرها .

أما الهداية والضلال والمجازاة عليهما فإلى الله سبحانه لا إلى غيره ، إذ هو أعلم بحال من لا يعوى عن الضلال لسوء اختياره ، وبحال من يصير أمره إلى الاهتداء لما ينطوى بين جنبه من الخير ، فما شرعه لك فى الدعوة هو الذى تقتضيه الحكمة وهو كاف فى هداية المهتدين وإزالة عذر الضالين .

ولما أمر رسوله بالدعوة وبين طريقها وكانت تلك الدعوة تتضمن أمرهم بالرجوع عن دين آبائهم وأسلافهم والحكم عليهم بالكفر والضلالة ، وذلك مما يحمل أكثرهم على إيذاء الداعي إما بقتله أو بضربه أو بشتته ، كما أن الداعي يدعو طبعه إلى تأديب أولئك السفهاء تارة بالقتل وأخرى بالضرب ، لا جرم أمر الله المحقين برعاية العدل والإنصاف في العقاب وترك الزيادة فيه فقال :

(وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) أى وإن عاقبتهم أيها المؤمنون من ظلمكم فلكم في العقاب إحدى طريقتين :

(١) أن تعاقبوه بمثل الذى نالكم به ظالمكم من العقوبة .

(٢) أن تصبروا وتتجاوزوا عما صدر منه من الذنب ، وتصفحوا عنه ، وتحسبوا عند الله ما نالكم به من الظلم ، وتكفوا أمركم إليه ، والله يتولى عقوبته ، والصبر خير للصابرين من الانتقام ، لأن الله ينتقم من الظالم بأشد مما كان ينتقم منه لنفسه .

والخلاصة — إنكم إن رغبت في القصاص فافنعوا بالمثل ولا تزيدوا عليه فإن الزيادة ظلم ، والظلم لا يحبه الله ولا يرضى به ، وإن تجاوزتم عن العقوبة وصفحتم فذلك خير وأبقى ، والله هو الذى يتولى عقاب الظالم ويأخذ بناصب المظلوم .

ثم أمر رسوله بالصبر صراحة بعد أن ندب إليه غيره تعرضا ، لأنه أولى الناس بفراغ الأمور ، لزيادة علمه بشؤونه تعالى فقال :

(واصبر وما صبرك إلا بالله) أى واصبر على ما أصابك منهم من أذى في الله وعن إغراض عن الدعوة ، وما صبرك إن صبرت إلا بمعونة الله وحسن توفيقه ومشيبته المبنية على الحكم البالغة التى تنتهى إلى عواقب حميدة .

وفى هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وشهوين لمشايق الصبر عليه وتشريف له بعمل لا مزيد عليه .

(ولا تحزن عليهم) أى ولا تحزن على إغراض المشركين الذين يكذبونك وينكرون ما جئتهم به .

(ولا تلك في ضيق مما يمكرون) أى ولا يضيق صدرك بما يقولون من الجهل بنسبتك إلى السحر والكهانة والشعر احتيالا وخديعة لمن أراد الإيمان بك ، وصدا عن سبيل الله .

وقصارى ذلك — إنه نهى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يضيق صدره مما يلقى من أذى المشركين على تبليغهم وحى الله وتنزيله كما قال : « فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِيُنْذِرَ بِهِ » وقال « فَلَمَّا لَكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَائِقُ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » .

فالله كافيك أذاهم ، وناصرك عليهم ، وويدك ومظهرك عليهم ، فهما حاولوا إيصال الأذى بك ، فإن الله مبعده عنك ، ومحبط ماصنعوا وهم لا يشعرون .
(إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) أى إن الله مع الذين اتقوا محارمه فاجتنبوها خوفا من عقابه ، والذين يحسنون رعاية فرائضه ، والقيام بحقوقه ، ولزوم طاعته فيما أمرهم به ، وفي ترك ما نهاهم عنه .

ونحو الآية قوله لموسى وهرون : « لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَىٰ » وقول النبي صلى الله عليه وسلم للصدیق وهما فى الغار فيما حكى الله عنه : « لَا تَحْزَنُ إِنْ اللَّهَ مَعَنَا » .

وقصارى ذلك — إن الله تعالى ولى الذين تبتلوا إليه وأبعدوا الشواغل عن أنفسهم ، فلم يحزنوا لقوت مطلوب ، ولم يفرحوا لنيل محبوب ، والذين هم محسنون أعمالهم برعاية فرائض الله وأداء حقوقه على النحو اللائق بجلاله وكأله ، وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم الإحسان فقال : « أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » .

والله نسأل أن يهدينا إلى سواء السبيل ، وأن يوفقنا للثقة فى دينه ، ويفتح لنا خزائن أسرارِهِ ، بحرمة كتابِهِ ، ويكنوز شريعته التى أنزلها على رسوله النبى الأُمى ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته وسلامه على سيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

بجمل ما حوته السورة الكريمة من الآداب والأحكام

- (١) استعجال المشركين للساعة .
- (٢) ذكر الأدلة على التوحيد بخلق العالم العلوى والسفلى وخلق الإنسان .
- (٣) الامتنان على عباده بخلق الأنعام وما فيها من المنافع من أكل وحمل أثقال إلى البلاد البعيدة .
- (٤) النعي على المشركين في عبادة الأصنام والأوثان .
- (٥) إنذار المشركين بأن يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من المثلثات وبما آتاهم من العذاب من حيث لا يشعرون .
- (٦) احتجاج المشركين بعدم الحاجة إلى إرسال الرسل بأن ما هم فيه من كفر وضلال مقدر مكتوب عليهم ، فلا فائدة في إرسالهم ، وقد رد الله عليهم بأن وظيفة الرسل البلاغ والإنذار لخلق الهداية والإيمان .
- (٧) إجمال دعوة الأنبياء بأنها عبادة الله واجتناب الطاغوت ، ومن الناس من استجاب لدعوتهم ومنهم من حققت عليه الضلالة .
- (٨) إنكار المشركين للبعث والنشور وحلفهم على ذلك ، وتكذيب الله لهم فيما يقولون .
- (٩) إنكارهم بعث محمد صلى الله عليه وسلم بأنه رجل لأمك ، فكذبهم الله بأن الأنبياء جميعا كانوا رجالا لأملائكة .
- (١٠) إنذار المشركين بعذاب الخسف .
- (١١) جعلهم الملائكة بنات مع حزنهم إذا بشر أحدهم بالأنثى .
- (١٢) رحمة الله بعباده وعدم مؤاخذتهم بذنوبهم ، وأنه لو أخذهم ما ترك على ظهر الأرض دابة .
- (١٣) ذكر نعمه على عباده بإنزال اللبن من بين الفرت والدم ، وأخذ الثمرات من النخيل والأعناب والعسل من النحل .

- (١٤) تفاضل الناس فى الأعمار والأرزاق .
- (١٥) ضرب الأمثال لدحض الشركاء والأنداد من دون الله .
- (١٦) الامتنان على عباده بخلق السمع والبصر وتسخير الطير فى جو السماء وجعل البيوت سكنا ، وجعله لنا سراييل تقى الحر وسراييل تقى بأس العدو .
- (١٧) جعل الأنبياء شهداء على أممهم وعدم الإذن للكافرين فى الكلام وعدم قبول معذرتهم .
- (١٨) الأمر بالعدل والإحسان وصلة الأرحام والنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، والأمر بالوفاء بالعهود والوعود وضرب الأمثال لذلك .
- (١٩) الأمر بالاستعاذة من الشيطان وبيان أن سلطانه على المشركين .
- (٢٠) تكذيبهم للرسول إذا جاءهم بحكم لم يكن فى شريعة من قبله من الأنبياء وادعائهم بأن هذا القرآن إنما هو تعليم من عبد روى ورد الله عليهم ذلك .
- (٢١) إنه لا ضير على من كفر بالله وقلبه مطمئن بالإيمان دون من شرح بالكفر صدرا .
- (٢٢) دفاع كل نفس عن نفسها يوم القيامة وجزاء كل نفس بما عملت .
- (٢٣) ذكر ما حرمه الله من المطاعم والنهى عن تقوّلهم على الله بغير علم .
- (٢٤) ذكر ما حرمه على اليهود بسبب ظلمهم .
- (٢٥) مدح إبراهيم عليه السلام ووصفه بصفات لم يوصف بها نبي غيره ، ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم باتباعه وسلوك طريقته فى العقاب والصبر على الأذى .
- وقد انتهى تصنيف هذا الجزء بمدينة حلوان من أرباض القاهرة عصر يوم الأربعاء الثلاثين من جمادى الآخرة من سنة ثلاث وستين وثلاثمائة من هجرة سيد ولد عدنان .

فهرست

أهم المباحث العامة التي في هذا الجزء (٢٥)

الصفحة	المبحث
٦	صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين ويهلك آخرها بالبخل والأمل .
٧	اتهمهم الرسول بالجنون .
٩	الله نزل كتابه وتكفل بحفظه .
١٠	ما أرسل رسول إلا استهزأ به قومه .
١٢	أراد الشياطين أن يخطفوا شيئا من أخبار الغيب فأحرقتهم الشهب المشتعلة .
١٤	الأدلة الكونية على وحدانية الله .
١٧	إرسال الرياح لواقع لم يعرف إلا حديثا .
٢٢	حجاج إبليس عن امتناعه عن السجود ، وفيه ضرب من الجهالة .
٢٣	تهديده سبحانه لإبليس .
٢٥	ما أعد المعتقين من جنات النعيم .
٢٧	ضيف إبراهيم .
٣٣	بشارة إبراهيم بإسحاق .
٣٧	مقالة لوط لقومه .
٣٨	أرسل الله على قوم لوط ثلاثة ألوان من العذاب .
٣٩	ضروب الفراسة .
٤٥	نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن تمتي زينة الحياة الدنيا .
٤٧	أمره صلى الله عليه وسلم بالجهر بالدعوة .
٤٨	المستهزئون بالرسول والقرآن .

الصفحة	المبحث
٥٥	دلالة المصنوع على الصانع .
٥٦	فوائد الأنعام .
٦١	لله نعم في البحر كما له نعم في البر .
٦٣	فوائد النجوم .
٦٦	في عبادة الأصنام ضروب من الحماقة .
٦٩	ذكر شبهات من أنكروا النبوات .
٧١	من حفر لأخيه جُبًّا وقع فيه منكبا .
٧٧	المشركون ليسوا ببدع في الأمم .
٨٠	الرسول مبلغ وليس بمسيطر .
٨٨	قالوا هب الله أرسل رسولا فلن يكون بشرا .
٩٠	آثار قدرته سبحانه .
٩٣	العوام يفعلون اليوم ما تقشعر منه الأبدان .
٩٦	قالت خزاعة : الملائكة بنات الله .
٩٧	وأد البنات خوف الفقر والعار .
١٠٣	كيف يتكون اللبن في الضرع .
١٠٤	معيشة النحل في الخلأيا .
١٠٦	ما أثبتته الطب الحديث من الفوائد للعسل .
١٠٨	الأعمار والأرزاق .
١١٣	ضرب الأمثال وفوائده .
١٢١	منن الله على عباده .
١٢٥	الرسول شهداء على أممهم .
١٢٦	الأصنام تتبرأ من عبادتها يوم القيامة .

الصفحة	المبحث
١٣٠	الهداية والضلال على مقدار استعداد النفوس للصلاح والغواية .
١٣١	ليس من خلق حسن إلا أمر به الله .
١٣٢	الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك .
١٣٣	الوفاء بالعهد .
١٣٤	ناقضة الغزل من بعد قوة .
١٣٨	المؤمن يحيا حياة طيبة تصحبها القناعة .
١٤٣	قالوا ما جاء به محمد من تعليم البشر .
١٤٥	من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان .
١٤٧	أول من أظهر الإسلام .
١٤٩	من هاجر وتاب من بعد ما قن .
١٥٠	مثل القرية التي كانت آمنة مطمئنة .
١٥٣	ما حرم من المآكل .
١٥٨	ما مدح به إبراهيم من صفات الكمال .
١٦٠	أمر الرسول صلى الله عليه وسلم باتباع ملة إبراهيم .
١٦٢	شرع الدين إحدى طريقين في العقاب .
١٦٤	بجمل ما حوته سورة النحل من الحكم والآداب .